

أحياناً لا أكون ميتاً

قصص

أشرف حسن عبد الرحمن

أحيانا لا أكون ميتا - قصص
الطبعة الأولى - منتصف أكتوبر 1998

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات (نصف شهرية) - 71

إبداعات

رئيس التحرير
فؤاد قنديل
مدير التحرير
سمير ندا
سكرتير التحرير
رضا العربى

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

تعالوا إلى مملكتي

مدخل إلى الصباح

كانت الوحيدة التى ترتدى مريلة زرقاء، وفى الفصل اصطادتنى عيناها جيدا، كان اسمها نبيلة، عيناها العسليتان حقلان صغيران من القمح، يتموجان، وتجعلاننى رغما عنى أبتسم وأشرح الدرس بمرح أكثر من المعتاد.

من الشرفة أراقبها، لم تكن تلعب كالأولاد من سنها، كانت تتهادى فى خطوة إمبراطورية، أرى بوضوح وفى نور الشمس وجهها يتفجر بالأنوثة، رغم أنها لم تتم عامها الخامس عشر، كيف نبتت هذه الياسمينة فى هذه القرية القاحلة؟

المطر يسقط، يحمل إلى أنفى رائحة طازجة، فى انعكاسات الشمس أستمتع بأسراب الطيور المهاجرة، وأحس انفلات فرحة وليدة وشجن شتائى دفىء، وكان كوب الشاى لذيذا جدا.

حديثو التخرج مثلى يبتسمون لها دائما، المتزوجون يسارعون

بتقطيب ملامحهم ويبالغون فى ضربها وإحراجها، البعض كان أكثر جرأة فى الهمس بتعليقات شبقة عن جمال البنت وتفاصيلها المحبوكة المتنافرة، المدرسات اتهمنها بسوء السلوك، وحين أكد أحد الإداريين ذو سمعة مشبوهة أنه رآها فى حضن طالب فى المدرسة، ودفعت افتراءاتهم، مسحتنى عيونهم جيدا، وقاسوا بعدها نظرتى، على أى شىء تقع ولأى مدى تطول أوتقصر؟، أصبحت أرتبك كلما جاءت تحدثنى على انفراد، لكنها ظلت دائما جميلة وفائرة وممنوعة.

دروس مستفادة من سيد القوم وخادمهم

يا ولدى ! أمامك الكثير لتتعلمه.

ارتبكت ولم أدر هل أجلس أم أظل واقفا، اعتدل فى المقعد الوحيد الوثير بالمدرسة، وقال :

لايجب أبدا شرح درس جديد فى الحصص الاحتياطية، فهذا اعتداء صريح على الزملاء.

نبح كلب من بعيد، وهز السيد الناظر أصبعه وهو يسدد نحوى نظرة خاصة، ابتسم بعدها وقال:

- أنت بالطبع لا تحاول مشاركة العباد فى أرزاقهم، أنا عادل وحذر جداً فى هذه النقطة.

ازدادنباح الكلب، وكنت أريد أن أقول إن الأولاد متأخرون جدا فى المنهج، وإن المدرسين يتركون الفصول خالية، ويطلبون من ولد أن يكتب على السبورة اسم من يتكلم، والمدرسة كلها تعلم أننى لا أعطى دروساً خصوصية، لكن نباح الكلب كان يقترب ويزداد، مرة أخرى ابتسم وقال:

المدرسة تحاسبك على فصولك أنت، اعمل مراجعية لكن

الشرح.......محاولة لجذب الطلبة.

وارتفع صوت النباح تماما، كان فم السيد الناظر يتحرك وأذنى تمتلئ بنباح الكلب، يبذل جهدا ويزداد عصبية، لكنى أسمع الكلب يعوى بشدة.

دخل المكتب عدد من الطلبة وكانت نبيلة بينهم، ولا تنظر إلى، قام الناظر إلى عصاه وراح يضربهم وهو يقول (هو....هو) عرفت بعدها أنهم لم يدفعوا المصاريف.

عند باب المدرسة فوجئنا بكلب أسود كبير يزمجر فى شراسة، قال أيمن :

-ربما عض أحد الطلبة

ضحك عم محمود وقال:

-هذا كلب ابن سعادة البك... مرشح الحزب، لحم الفقراء مر يا أساتذة لن يكون على مزاجه، الكلب يحميه لعافيته، يتغذى بكيلو من اللحم الأحمر الطازج وكرتونتين من البيض يوميا.

كان جسد الكلب ينتفض بشدة، خرجنا من الباب الآخر وقال لى أيمن إنه يخاف من الكلاب جدا، فى الطريق كان صراخ عنيف من أحد البيوت.

ما حكاه البيطرى الشاب فى الصباح التالى

الريبس .. عضة الكلب، هذا شىء يخيفنى يا أستاذ، هل تتخيل مخلوقا آدميا يأكل كل شىء أمامه حتى الزجاج يمشى على أربع ويعض كالكلاب تماما، وفى مرحلة متقدمة من المرض ينبح نباحا حقيقيا ويسيل لعابه، عندما تسلط عليه الضوء يسكن تماما كالتمثال!!، السعار هو ما يخيفنى، لكن الفلاحين يضعون بعض الدقيق أو البن ويقولون كله على الله.

عندى خمسة وثلاثون عاما وزوجة وثلاثة أطفال، ألبس كما ترى! فالفلاحون يستقبلوننى فى زرائبهم ويؤجلون دائما دفع الاستشارة، أحيانا، أقسم لك، أدفع ثمن العلاج من جيبى، لكنى أفرح جدا عندما يأتى الفرج وأولد جاموسة، أعالج إسهال الكتاكيت وهزال الحمير بشربة من قلة باردة أو بكوب شاى، لو كانت لى عيادة لرحمنى الله وعالجت القطط السيامى، وهذا الكلب بالذات يتربص بى، حتى أتجاوز بيت.. الكلب.

مرة، خرج لى ابن البك السمج وقال إنه يريدنى لشىء هام، دخلت أحلم بكوب شاى بعد اللف والدوران، قدم لى نسكافيه وكان نباح الكلب يجعل الفنجان يرتجف فى يدى، نادى عليه فغصت فى الكرسى، ربت عليه وسألنى:

-هل صحيح هناك عمليات تجميل للكلاب؟.

هززت رأسى وقلت مرعوبا:

-حسب علمى نعم، لكن فى أمريكا.

-خسارة كنت أتمنى أن أغير شكل أنفه.

بعدها سألنى ماذا أنصح لطعامه، وقبل أن أجيب، قال إنه يأكل كيلو جراماً من اللحم وكرتونتين من البيض يوميا فهل هذا مناسب؟

خرجت غير مصدق لما سمعت لأنى فى قرية يعانى نصف أهلها من فقر الدم.

أمس يا أستاذ ماتت جاموسة إبراهيم أبو على، أذكر عند وفاة ابنه أنه قال (طولة العمر لك، الله جاب، الله خد، الله عليه العوض)، لكنه يرفس الآن فى الدار كالمجنون، سأعود برائحة الروث إلى زوجتى وأولادى وليس فى يدى نصف كيلو من اللحم.

نعم ... كنت أريد أن أسمه، لكن الملعون قطع السلسلة وكاد أن يقتلني، أرسل ورائي الخدم فقفزت أختبئ في المدرسة.. الكلب.

قال الناظر :

ستوقفه النقابة عن العمل فسعادة البك لن يسكت، وسألني البيطري في براءة:

هل سيبلغ النقابة حقا؟

ونبح الكلب بقوة.

حكاية صديق الطفولة والصبا
الذى يخاف الكلاب جدا

- لماذا تجعلون سماواتى أرغفة ؟.

سـألنى أيمن من الشـرفـة، وفـتح يديه وصـاح فى الأطفـال الواقفين تحت بيته

«تعالوا جميعا إلى مملكتى»

كان جـارى وزميلى فى الكلية والعمل، كان وسـيما وحـالما ويحب الشعر لكنه كان خجولا جدا، حتى فى المدرسة.

قـال لى يومـا وعـيناه تلمـعـان إن فى فـصله اثنين من العاشقين، أبناء خال فى الثانية عشر، فلم أعلق، ذات يوم جاء أبو الولد وضربه بوحشية كأنه كرة تنس..... فى المدرسة، كنا أربعـة نحـاول منعـه، لكنه كـان فى قـوة ثور، بعـدها جلس يلف سيجارة ويقول بفخر :

– أعلمه الأدب وحب العلم.

بعد أيام سمعنا أن الولد انتحر، رسب فى العلوم وقالت له أمه وهى تلطم خديها :

-أبوك سيقتلك. سيقتلك ويطيح فىّ أنا وأخوتك.

حرق نفسه بالجاز، مرضت البنت ولم تعد تجىء، المدرسة، زارها أيمن، ولما عادت للدراسة ربت على كتفها أمام المدرسين، فى الردهة استوقفنى وقال لى إن البنت ذهبت للحمام ولم تعد وإنه قلق عليها لأنها دائما شاردة وتنتابها حالة صرع، قلت لا داعى للقلق وذهبت إلى حصتى، بعد خمس دقائق كانت جلبة شديدة فخرجت من الفصل، وفى حمام الطلبة وجدته متصلبا بين زحام والسيد الناظر يقول :

– فى المدرسة.......فى المدرسة يا أستاذ؟!

قال المدرسون إن السيد الناظر دخل على بكاء البنت، ورآه يحتضنها ويحاول اغتصابها، كانت البنت تتشنج ولم ينطق أيمن، بعد قليل...حاصر أهل البنت المدرسة وهددوا بإحراقها فطلب منى السيد الناظر بمنتهى الحكمة أن أعيده إلى بيته....لحمايته. كان علينا أن نمر من بين هذا الطوفان الغاضب فى حماية بقية المدرسين، لكنهم كانوا يصلون إلينا، وكان علينا

أن نمر بجوار الكلب، كان أيمن تائها يرتجف ويزداد التصاقا بى، والكلب يتربص بنا ويعوى بشدة.

فى التحقيق قلت وقالوا كلاما كثيرا، لكن أيمن لم ينطق، كان شيئا كالزبد يعلو فمه، انتفض وجرى كالمجنون قائلا سأقتل الكلب، أوقفوه عن العمل ولم نر البنت فى المدرسة.

وفى صباح غير جميل ، سألنى من الشرفة (ما الحل....؟) وحين سألته ماذا يعنى، أشاح بوجهه بعيدا، كان مرهقا ومكدودا، ويشير بيديه فى الهواء، بعد نصف ساعة قالت أمى إنه قد جن.

فى الظهيرة قالت النساء إنه يشتهيهن، وتعلم الأطفال كيف يخافون منه، لكن ابتسامته كانت تسيل من الشرفة على الأطفال المتحمسين لكلامه، كان الجو صيفا وهو لا يزال فى الشرفة والنجوم كلها .... خابية.

فى غرفتى، ما بين النوم واليقظة كانت عينا الكلب ترمقاننى فى العتمة، بينما ينتفض كل جسدى.... وأنا ساكن مرعوب ملتصق بالسور/ الفراش، العرق يعلو جبهتى.

بقية ما حدث

سألتنى نبيلة ذات يوم ماذا أقرأ؟ وما هى مواصفات فتاة أحلامى؟ اقترب وجهها منى وكانت شفتاها كالكريزة، حمراء ومنعشة، منحتنى ابتسامة خاصة جعلت الدماء تندفع فى وجهى، جعلتنى أسهر طوال الليل أشاهد صورا من أيام الجامعة وأقرأ خطابات قديمة، لكن عينى الكلب ظلتا فى العتمة تتربصان بى.

صممت ألا أبتسم لها، ولما بكت فى الفصل تجاهلتها، بعد الحصة قالت لى إنها تريد أن تحدثنى فى مشكلة له، قلت بحسم (اذهبى لأبلة الأخصائية)، رمقتنى بنظرة لن أنساها،اندفعت تجرى وكان خطوها طفوليا ومرتبكا.

لم أعد أراها هى الأخرى فى المدرسة، وقال عم محمود وهو يقدم القهوة إن نبيلة ستتزوج.

كان الجو حارا جدا، وكنت أتنفس من ثقب شديد الضيق، الهاموش ينهش وجهى، والقهوة أشد مرارة من كل مرة، وقال عم محمود إن هذا أوان (ضم الغلة).

خاتمة غير مثيرة للصباح الأخير

أحيانا يجيء أيمن إلى المدرسة فيحرر السيد الناظر لنفسه خطاب مأمورية إلى الإدارة التعليمية، و يستحلفني قبل انصرافه أن أراقب أيمن وأعود به، وأيمن يمشي بين الفصول والمدرسين مرددا أنه جاء ليقتل الناظر الكلب، ويجلس بين نظرات التشفي والحزن، الإشفاق والشماتة، فأرجوه أن يقوم معي.

كان موعد خروج الأولاد، وكنا نموج بينهم لنصل إلى الباب، كانت عيونهم تحط على كتفه كالعصافير وكنت ما أزال أبحث عن هواء، الأولاد لايصرخون كعادتهم، كنا إذا ارتفع الصياح في الفصل الخالي من المدرسين نضرب الأسماء المكتوبة على السبورة في غل، لكن الأولاد كانوا لا يكتبون اسمها أبدا، ونادى عليها مدرس الرياضيات، وقال في صراخ غريب :

–لن تدخلي المدرسة بهذه المريلة الزرقاء.

في اليوم التالى قالت بعينين مكسورتين إنها لا تملك غيرها، كانت تمشى من قريتها إلى المدرسة ثلا ثة كيلو مترات، وفى الحصة الأخيرة يسقط وجهها- مثلهم - على الأدراج كأوراق الخريف ذابلة. ذابلة.

-كيف يا عم محمود ؟.

-شيخ العرب جاء إلى مصر لشراء كلية، عرض ثلاثين ألفا. جاءت به أختها الممرضة ربما نفعته كلية أحد من العائلة، لكنه لمح البنت فطار عقله، شيخ العرب معذور فى الستين ويرى صدر البنت الذى هو كنوز سليمان، والبنت رغم فقرها(خايلة) حتى فروق شعرها، دفع لأبيها عشرة آلاف جنيه وسيسافر بها إلى الخليج السعيد.

رأيتها على الطريق فى السيارة السوداء الكبيرة المقفلة وعيناها لا تبينان من وراء الزجاج والبنات يلوحن لها، فسألت أيمن :

هل تظنها التفتت لى ؟.

أيمن لا يجيبنى ولم يعد يخيف أحدا بنظرته الوادعة ويسألنى بلا صخب :

لماذا تجعلون سماواتى أرغفة ؟.

أعرف أن عينىّ لم تلتقيا بعينيها، فعادة أخفض رأسى كلما تذكرت نظرتها، وأمسح شيئا كالبصقة من على وجهى.

حاولت أن أقول شيئا، أى شىء....لكن الكلب كان يعوى وصوتى يضيع والكلب لا يزال يعوى هناك.

ثلاثون مترا

صباح الخير...أيها الصباح

لأول مرة، أصبحت ملكى ثلاثون مترا، صار بالإمكان أن أمد بصرى لأطول مما تعودت لسنوات طويلة، فلقد هدموا البيت الكئيب المواجه لغرفتى.

كان دائما يصفع عينىّ، يمنع الشمس عن غرفتى، ويمنع أيضا شرفتها الصغيرة، كانت فرحتى كبيرة بهذا المكسب الصغير وأنا أرى بوضوح وفى نور الشمس شعرها الطويل الأسود ينسدل على كتفيها وهى تتكىء على سور الشرفة.

كانت جميلة وطازجة كأنها خارجة من كتب الحواديت... أسميتها قطر الندى.

يا إله المطر والياسمين ...لماذا تغير طعم الصباح ؟

فى صباح غير بعيد. كنت أخرج لأنى لا أجد ما أفعله سوى انتظار خطاب أصفر لا يجىء، تودعنى دعوات أمى بصلاح الحال.

فى الطريق، أشترى الجريدة وأمضى دون حماس، فى عينىّ المرهقتين زحام وخطوات مسرعة، تدفعنى المناكب فأسرع مثلهم وأتذكر قول فولتير إما أن نسير أو ننقرض.

نعم ما زال الناس يتدافعون إلى الأتوبيس والأولاد يشترون الفول ويذهبون إلى المدرسة.

فى رأسى المصدوع تفوح ابتسامة أبى العطنة وفرحته بحصولى على الشهادة.

(يا أبانا الذى فى القوى العاملة، المجد لك والصمت لك...... وحبوب الأتيفان لى).

فى المقهى يقول زميل لى يتحسس مثلى أعمدة الوظائف الخالية :

(يا صاحبى الفضول سر الحياة)

أما الرجل العجوز فيدعونى إلى لعب الطاولة ويملأ رأسى بحديثه عن الأولاد وعن أجازة نصف العام التى ستبدأ غدا.

فلماذا أصبحت أستيقظ مبكرا وأتلكأ فى الذهاب إلى المقهى؟

مع كل صباح تهبط سطراً جديدا من كتاب الحواديت، تبدو بعنقها النحيل طائرا أبيض يسبح فى ندى الصبح، تومض عيناها الوديعتان من وراء الكتاب حين تفاجئها نظرتى، لكنها أبداً لا تغادر الشرفة.

بينى وبينها ثلاثون مترا، فيها يلعب الأطفال وتغنى العصافير وتعبق غرفتى رائحة البحر.

شرعوا فى بناء المنزل الجديد بأسرع مما توقعت، كاد البناء أن يحاذى شرفتها، استجمعت شجاعتى وحدثتها بجرأة عن جمال الصباح فابتسمت. كذلك ابتسم صديقى وغمز لى بعينه قائلا إن أجازة نصف العام تنتهى غدا.

ذات المساء اشتريت وردة حمراء، وضعتها بعناية فى كوب ماء نظيف، نفضت التراب عن ناجى وأراجون ومحمود درويش. النور ينبعث من شيش غرفتها....لابد أنها تذاكر، أعيد ترتيب الغد، ماذا لو انتظرتها أمام منزلها؟ أركب معها الأتوبيس أو أتبعها إلى مدرستها وهى تسبقنى بخطوها الرشيق، تحتضن حقيبتها وتدعى الغضب.

الليل أكثر هدوءًا ..والنجوم أكثر روعة بالتأكيد.

يا صديقي الصباح تصالح معي، في قلبي ارتجافة خلت أنني قد نسيتها، الوردة حمراء ناعمة في يدي وأنا أمام منزلها أنظر إلى ساعتي وأتكئ على سيارة سوداء، ياصديقي الصباح لماذا أحس بالانقباض و هذا الشاب يدفع أمامه كرسيا متحركا يطويه بعناية ويضعه في المقعد الخلفي؟.

يستأذنني بنفس ابتسامته المرتبكة ويدير محرك السيارة، كان قلقا من وجودي وعندما خرج ترك الباب مفتوحا واختفى في المنزل.

بعد لحظات كان شيئا يتفحم في قلبي، والوردة تنسحق بين أصابعي وهو يخرج حاملا فتاة في زي الثانوي... كانت هي ....تدير وجهها لي وللصباح. شعرها الأسود يتهدل ويخفي وجهها الذي نام على صدره في استكانة، أسحب خطواتي المشنوقة وأمضي.

يا إله المحزونين لماذا لا ينبت النرجس في روحي ؟ ولماذا

تقلصت أمتارى القليلة ؟

البناء حاذى شرفتها تماما، حين فصل الطوب الأحمر بينى وبينها، بردت قهوتى وامتنعت الشمس عن المجىء إلى غرفتى.

فى صباح جديد يدق جرس المنبه، أستيقظ كسولا كسولا، أمام صنبور الماء أرقبه طويلا قبل أن أحلق لحيتى بعصبية وينبثق الدم من ذقنى.

فى المقهى، عاد العجوز– كعادته – ليهزمنى فى الطاوله.

يا إله المقهورين...ماذا يجىء به الصبح غير الجريدة وكوب من القهوة الباردة؟؟؟؟.

عصافير

هذا الطريق مغبش بطفولتى، ومزدحم دائما بشقشقة العصافير، يمتد أمامى سور المحطة القديم المتآكل وقد تعرى طوبه الأحمر المشبع بالرطوبة، مازالت الأشجار العجوز تلقى عليه ظلالها، جذوعها قائمة لم يصبها الوهن، رغم البقع البنية المتناثرة عليها كجروح قديمة، غائرة، مندملة، الأوراق الطويلة الموزية تتدلى من أغصانها المتشابكة وتكاد تمس رأسى.

فى طفولتنا كانت أيدينا لا تصل أبدا إليها.

كانت بالسور فتحة صغيرة سدت الآن ببقعة من الأسمنت، كنا نضع حقائبنا، يحرسها لنا أحمد العنانى، النحيل، بوجهه الأصفر وابتسامة المصالحة مع الجميع شأن كل من يعرف أنه سيرحل قريبا.

كان يخجل من أمه التى تصحبه الخطوات القليلة للمدرسة وتحمل عنه حقيبة صغيرة مكتظة بالسندوتشات نقتسمها معه دائما.

فى عودتنا كان يجلس فى استكانة، بقلبه الواهن، يراقب حقائبنا وقد يشاركنا حماسا قليلا ونحن نلعب بالدومة الكبيرة التى اشتريناها (بقرش تعريفه).

بعد أن يهدنا التعب نخرج من فتحة السور، وقد نقفز محاولين الإمساك بغصن قريب، حين ينجح أحدنا يتعلق به....... منتصرا.

فى المرة التى سقط فيها عصفور صغير، تدافعنا، حاصرناه فى دائرة محكمة فرحين بمنقاره الأصفر وريشه البنى وأقدامه الصغيرة التى تخمش راحاتنا، حين اطمأننا لعجزه البادى، كنا نتركه يحاول أن يطير، يصفق بجناح ضعيف فلا يرتفع لأكثر من أكتافنا ويسقط.

كنا نضحك جميعا سوى أحمد العنانى الذى أشار بسبابته وقال :

- دى أمه.

أمكننا أن نرى تحويم عصفور آخر، يقترب منا ويعود ليحط على السور، نكاد نسمع رفيف جناحيه، وهو يدور حولنا ولا يعود للشجرة، اهتزاز رأسه يقابله اهتزاز رأس عصفورنا،

صوصوته الغريبة هى نفسها صوصوة عصفورنا، تعذب قلوبنا الصغيرة وترجونا أن نرحل.

أصبحت اللعبة باردة، وضعناه بجوار الحائط وكدنا ننصرف، لكن قفزاته بدت لنا غبية جدا وهى تلقيه فوق الأسفلت حيث مروق السيارات، رحنا نهرع لنجدته رغم صراخ السائقين.

أخيراً..... حمله أحمد فى يده، ووقفنا ساكنين فى انتظار معجزة صغيرة، أن تهبط أمه وتحمله من أيدينا، اهتدينا لفكرة. رحنا نقذفه بحرص إلى أعلى، خفقان قلوبنا يزداد ونحن نرى العصفور الكبير يمزق الهواء ليصل إليه يمسه ويكاد يحمله، لكن الجناح الصغير يخوننا ويهوى بعصفورنا.

كررنا محاولاتنا ونحن ندفعه، بذات الحرص القديم، وأمل جديد فى اتجاه المحطة.

.... صاروا أكثر من عصفور جاءوا، وظلوا جميعا يرفرفون بأجنحتهم ويندفعون إليه.

نلقيه عاليا أكثر قليلا، ناحيتهم، أمه التى نميزها جيدا، لأنها أسرعهم، تندفع من جديد لتحمله، تفشل، يسقط، لكن لا تيأس. وعلى حافة السور تستريح قليلا أو تحاول الفهم.

هو ..... لم يعد يقفز بعيدا عن أيدينا، ينتظرنا فى وداعة لنحمله ثم نقذفه إليها، وعندما رأينا رفيف أجنحة كثيرة وأربعة أجنحة ترفرف تقريبا فى مكانها للحظات فى ذلك الفضاء الصغير ما بين السور والشجرة، صفقنا كثيرا لأمه وهى تحمله هاربة، لماذا تذكرت أحمد العنانى وهو يهبنا فى عدل أشياءه القليلة وأمه التى ترجونا أن نوجه عنايتنا إليه، كانت دائما فى الشرفة بشهقة انتظار ورضا وتأجيل، الآن يسقط المساء فى قلبى، أدير وجهى كى لا أرى شرفته أو البندقية المصوبة نحو بقعة ضوء غادر متسلل، ثم طلقة مكتومة، صغيرة وفادحة، تسقط عصفورا، قد يسقط داخل المحطة ولا ينالونه وقد يسقط فى أيديهم فتقطع يد رأسه بعد شهادة قصيرة وتلقيه فى كيس بلاستيك مغبش ببخار أنفاس أخيرة وخيوط دم رفيعة تختلط بأجنحة عصافير منزوعة الرؤوس، تتجاور مع بعضها فى تكدس قابض.

فى اليوم التالى كان مقعده شاغرا، ورفضنا رغم عصا المدرسين أن نشاركه فيه وظللنا حتى فى لعبنا لا نقترب منه.

تفزعنا شروحات أمهاتنا الطويلة كيف أن أحمدقد رحل إلى الأبد.

أذكر شعاع الشمس على دكته الخالية، ولسعة برد شتائية تقشر قلوبنا الصغيرة ونحن نتقدم ببطء ويقين غامض، لنضع فى درجه كل ما أخذناه.... الأستيكة الكبيرة الملونة ذات الرائحة، المسطرة التى تعكس جدول الضرب، المرآة التى تشبه التليفزيون ونرى بداخلها صور الحجاز، كنا نغلق الدرج بهدوء شديد وكانت أيدينا تختزن لحظة دفء قصيرة، ألا انها كانت تدخل فى مجال الجذع الشفاف لأشعة الضوء وتتابع بانبهار ذرات رقيقة سابحة تتصاعد إلى أعلى.... إلى أعلى وتحلق نحو الشمس؟ أم أن العصافير قد فهمت فجأة بكاء أمه حين لمحتنا من الشرفة فنزلت إلينا، يدها تتهجد على رؤوسنا، لا تقول شيئا وتجرى..........

فى أذنى صوت التكسر الهش لرقبة عصفور، بينما يعلو صوت بندقية تتشدق قبل أن تبصق موتة أخرى للعصافير.

بعدها..... لم نفتح الدرج، ولم تسأل العصافير أبدا هل مازالت أشياؤه موجودة أم....... ذهبت؟.

بنات

هـــدى

كنا أربعين مدرسا، فى قيظ يوليو، نتواجه أربعة أربعة، ننفخ الدخان بملل.

كنا أربعين قلما تتحرك فى آلية تشحذها نظرات الموجه وتكدس الأظرف الصفراء، لا نكاد ننتهى من أحدها ونفرد ظهورنا للحظات، حتى يلقى أمامنا الإدارى بمظروف آخر ويعود إلى السبورة ليكتب بالطباشير عدد الأوراق المصححة.

كنا ثمانين عينا تبحث مرة بعد أخرى عن درجات النجاح بقرف وبلا جدوى، تفتش فى بعضها البعض عن ابتسامة، عن مرور فراش بكوب ماء، عن عقارب ساعة تتلكأ ولا تصل أبدا للثالثة موعد الانصراف.

على الباب أطلت ضفيرتان وإشراق وجه منعش صغير تثقبه عينان بريئتان متلصصتان، منحتنا ابتسامة صغيرة ماكرة وأخرجت لنا لسانها وهى تلعقنا نحن والآيس كريم.

الموجه نادى عليها فدخلت ولم تخف، بجانب الحاج صبرى البدين وقفت وقالت وهى تدعوه إلى لحسة آيس كريم :

-الساقط بتعملوا فيه إيه يا عمو ؟.

-شهر سجن وستين جلدة لأبوه.

كتمت ضحكتها بيد وارتفعت ضحكتنا عالية، حتى الحاج سعد الصموت ضحك حتى دمعت عيناه.

كانت تنتقل بين الأقلام الحمراء والابتسامات تفلت من الجميع وترفرف عليها، نسألها مع من جاءت وكيف اخترقت إجراءات الأمن، عن اسمها ومدرستها وفستانها القصير.

الوجوه كانت تتسابق وتجفف عرقها الدهنى لتنال منها هذه القبلة اللذيذة الباردة المبللة بطعم الآيس كريم :

-باى باى يا عمو.

لم تخص أحدنا نظرتها أو ابتسامة الآيس كريم لكن صوتنا جميعا ارتفع :

-باى باى يا هدى.

الأقلام الحمراء، توقفت، تلكأت، هرشت، لكن الموجه كان يعلن أن كل الأوراق الراسبة كادت تختفى، والإدارى صوته يرتفع مؤكدا أن الأقلام الحمراء،رغم كل شىء، قد صارت أسرع.

هـديـة

تمشى وحدها كل هذا المشوار فى حر الثانية، تتوقف أمام محل، تتأمل الفترينة جيدا، تدخل لتشترى ميدالية حمراء، تبحر فيها سفينة لا تغرق.

حين تخرج تمسك الكيس بأطراف أصابعها كى لا يعرق فى الطريق. عند المنزل تتوقف قليلا، فى بئر السلم تجفف عرقها، تتأمل نفسها قليلا فى المرآة الصغيرة، تلتقط أنفاسها وتصعد تدق باب الأستاذ، تعتذر أنها جاءت فى وقت غير مناسب،تخبره أنها نجحت وتقدم له هديتها.

الأستاذ يبتسم (افتحها)، يقرأ أسفلها I Love You، يتلعثم، يدعوها للدخول فترفض، وحين يمد يده مودعا تمسح بسرعة يدها بالمنديل الورقى وتستبقى يده قليلا. حين يرفع عينيه إليها يحمر وجهها وتقول وهى تجرى على السلم

(سعيدة بقى، كل سنة وجضرتك طيب)

البنت عندها ١٦ سنة فقط.

الحصة الأولى

جاءت متأخرة تدفعها زميلتها. سكت الفصل، حين وصلت إلى مقعدها حملتها اثنتان حتى جلست، ظل الكرسى المتحرك بجوارها خاليا وعلى عجلاته المعدنية ندى الصباح.

المدرس الشاب ملأ السبورة بكتابة شتائية مرتبكة، استدار وألقى أسئلته، الدور ظل يقفز حتى وصل إليها، كالعادة يطلب منها أن تجيب وهى جالسة لكنها تستعين بيديها وتجاهد حتى تقف أخيرا غير مستقيمة.

كالعادة يغتصب ابتسامة تشجيع ويسألها سؤالا سهلا ترفع له كل البنات أصابعها، لكنها لا تهتم وتنظر إلى النافذة، كالعادة يقدم لها نصف الحل، ينتظر أن تبدأ بكلمة، أى كلمة ليستكمل الإجابة ويدعوها للجلوس، وعلى غير العادة تتجاهله تماما وتنظر إلى الحوش.

المدرس يحاول ألا يفقد صبره وأعصابه لأنها مسكينة وغير ذكية وذات نظرة متراخية، لكنها لا ترد وعيناها ما زالتا تتصمغان على النافذة.

المدرس الشاب ظل يحسب فى رأسه معادلات كثيرة برغم تثاؤب الصباح، المدرس كان يغالب وجعة القلب ويصله بالتأكيد ضجيج البنات فى الحوش وهن يجرين فى حصة الألعاب، حين تقدم أخيرا بحسم وبعصا مشرعة وهو يقول لأول مرة (افتحى إيدك) فتواجهه ببرود وعدائية، العصا على يدها، يندهش لأن العينين المطفأتين راحتا تتحديان، تتوهجان، تبتسمان منتصرتين... ولا تبكيان .

القادمون

ليلتـهـا لم نذهب إلى الفـراش مـبـكرين، وكنت سـاهرا، نورك يسـيل على فـرندة البـيت الكبـيـر، فـوق الحـصـيـرة كـانت اللمـة، الشـاى يدور والطبق الكبـيـر ذو الكحك والملبس والسـودانى فى المنتصف لا يكاد يفرغ حتى يمتلئ.

ليلتـهـا كنت مثلنا سـاهرا، وكنا نجلس القرفصاء نستند على خدودنا بمرافقنا لا نتنفس، عيوننا كشافات مفتوحة عن آخرها تتأملهم، تتسع لتمتلئ بهم جميعا حتى العيد القادم.

نغـالب تثاؤبنا وآذاننا بئر عميقة تسقط فيها كلماتهم حين يذكرون الحكايات القديمه ويضحكون، فنضحك لضحكهم.

حين تجرجـرنى حسنة إلى الفراش، كنت فى استيقاظى القصير أراك من الشباك دانيا، فأسترجع أمامك كل ما قالوا، وأنام أحلم أننى أعيش فى مدينتـهم المسحورة، أتحدث لغتهم، وأرتدى ملابسهم، القميص والبنطلون، لا أخاف الكبار، والكبار لا ينهروننى.

آه يا بدر ،،، كانت مثلك فى الرابعة عشر، تحبها وتحبك تنظر إليك ولا تمل منك، وكنت تصاحبها، تسهر فى عينيها، تلون وجهها بالشهد، وفى الصباح أول ما أرى كانت عيناها فوق الوساده تواجهاننى وحين تفتحهما أراك نائما فى عينيها،،حتى المساء.

فى الصباح تجمع فى الشنطة القماش كراريسى وجزء عم و جدول الضرب الصغير وتوصلنى رغما عن أبى وأمى، حسنة، أحبها دون كل أخوتى، تخفينى دائما فى حضنها.

أول يوم صحبتنى فيه إلى الكتاب بكيت فبكت، حين ضربنى سيدنا لأننى لم أعرف حكم النون المشددة، لم تخف منه وقالت إنها لا تدفع له كى يضربنى.

قبل أن يأتوا بأيام كانت تنقع المشط فى الجاز وتفرق شعرها، فى المساء تأخذنى فى يدها وتذهب إلى تانت سوسن ونعود فتخرج لها أمى الصابونة أم ريحة، وتحملنى معها إلى الحمام تطرطش الماء على جسدى وبعد حماية العيد تلبسنى الجلباب النظيف المغسول، وتسهر أمى تضفرها حتى الصباح، أنتظرها وأغالب نعاسى، فتقول أمى (بكره تروح بيت جوزها،

هتنام لوحدك ازاى ؟)

بعد انصراف أمى تأخذنى حسنة لأنام فى حضنها وتحكى لى عن الشاطر حسن وبساط الريح وست الحسن وعفاريت القمقم، وحين أخاف من سيرة الغول تحتضننى أكثر، تقبلنى على جبينى وتضحك (إنت راجل.. عيب تخاف زى العيال) وعندما تظننى قد رحت فى سابع نومه تنسحب، فأراقبها بعينين نصف مغمضتين وهى تدهن الأكلادور من زجاجة تانت سوسن، حين أفاجئها (شايفك) تداريها بسرعة وتقول (جاتك الهنا يا محمد لسه صاحى)، أعرف أنها سوف تخفى يدها جيدا عن أبى الذى يجاهد وجعه، ويضربها كلما كحلت عينيها أو عضت على شفتها السفلى حين تتكلم.

أمى أيضا ،تحسبنى نائما وتأتيها خلسة بالملابس الصغيرة الحمراء التى يصير لونها داكنا تحت الجلباب الأبيض.

...... من النجمة، أجرى إلى البيت الكبير مع حسنة، تدوس بالشبشب مثلى فى التراب ولايعلق بقدميها الوسخ، أمام الفرن أتابع المطارح النشيطة لبنات العائلة هانم وعطيات وسعديه

وأمال وسناء وجميلة وخالتى فاطمة ومبروكة، وزوجة أخى الكبير مصطفى وهى تجهزعلى كوماج العيش، زوجة عمى الناظر تجلس إلى الطبلية وتسقى الفطير المشلتت بالسمن البلدى، نساؤهن البيض يشربن الشاى ولا يشاركن فى الخبيز.

كلماتهن حلوة تتوزع بالتساوى على البنات، حتى إذا بلغن حسنة تسابقن إلى تقبيلها، يحسدنها على ضفيرتها الثخينة ويقلن إنها تركية تمام مثل (ستنا أفندينا) .

وحسنة تتوهج أمام الفرن وتخرج العيش منفوخا، تنادينى (كل لك لقمه)

فأمضغ قطعة الفطير الساخن على مهل.

عند الإفطار، لا نجلس على طبليتهم نظل واقفين نضحك حين يشكون بأعين حمراء الناموس والبراغيث.

فى الطريق إلى صلاة العيد نباهى بأبناء أخوالنا البندريين ونعود تاركين الكبار يقرأون الفاتحة لجدنا أفندى الأوقاف وجدتنا أم محمود أفندينا، يخرجون بعجلاتهم فنجرى بجانبهم ندفع عنهم الأولاد ولا نجرؤ على طلب لفة، وحين يجىء رضا المكار بالحمار ويأخذ نقودهم المعدنية الكثيرة، كنا ننظر إلى

العجلة الخاوية مبهورين و نستعجب أنهم لا يشترون مثلنا العسلية وبراغيث الست حتى الزلطه، وإذا ذهبنا للصيد قلبنا لهم الأرض بحثا عن طعم، نصطاد لهم السمك الذى يأكل طعمهم ولا يشبك فى سنارتهم، إذا تشاجرنا ضربتنا أمهاتنا، وأعلم أن أمى سوف تصالحنى وستمنحنى بعد رحيلهم ولأيام طويلة الملبس والشيكولاتة.

فى الظهيرة ينهى الأخوال لفة العيد فى دارنا، أجلس على حجر أمى وأطلب المضيوع فتنهرنى، هم بالكاد يذكرون أسماءنا (نسيتنى يا خال؟) ويسألنى خالى صالح المهندس بتروح المدرسه؟) فترد أمى (بطلع الألفه فى الكتاب والسنه دى رايح المدرسه).

أبى يستند على الحائط ببطنه المنفوخ، يلعن الاستسقاء، ويعد لهم الشاى بيد واهنة (بعوده الأيام، شد حيلك يا بو محجوب) وحين يقبلون حسنة يسألها خالى صالح لماذا خرجت من المدرسه، تقول أمى (كفاياها علام وأنت أدرى بالحال)، حسنة تناوله الشاى فتبتسم أمى وتقول (كل يوم يجيها عريس، مستنين أبوها ربنا ياخد بيده).

الشـاطر حسن كـان منهم وكنت أحبـه أكثـر منهم، كـان لا يخطىء العصافير ببندقيته ويتركنى ألعب بها وحدى.

لا يستطيع الجلوس على الطبلية، يبدو فرحا فى الجلباب، يهز يديه فى جيبه فيهتز معه كخيمة. لا يخاف أن يحكى أمام الأخوال عن المدرسة ومعاكسة البنات وخناقاته مع المدرسين ولعب الكرة كانوا يضحكون له، وإذا نظر إلى حسنة لمعت عيناه وتحدث، فتقربنى من صدرها وتقبلنى قبلة هادئة خلف أذنى.

الشاطر حسن دائما كان يهرب إلى دارنا ليدخن سيجارة

من وراء خالى محمود، يعزم على أبى بواحدة فيقبلها شاكرا، يبلل شفتيه كثيرا، عيناه تتسلقان على مهل جلباب حسنة وتتوقفان على اللون الداكن، حسنة يأكلها مع قرص اللبن الرائب، ويشربها مع الشاى، يلحسها مع طبق العسل

حسنة عيناها تلمعان وتدوران مثل نحلة، ثم تخفضهما فجأة إلى الأرض وتقوم بسرعة، ترفع ذيل جلبابها فتظهر رجلها التى علمت فيها الحصيرة، الشاطر حسن يتبعها وهى تحلب جاموستنا الوحيدة، يضع يده على كتفها (علمينى كده) تبتسم وترفعها (هازعل منك يا سامح)، يخرج الفلوس الجديدة ويطلب

منى أن أشترى له علبة دخان، أجرى رهوانة وأعود لأجده يقرأ الماشاء الله التى على صدرها يقترب كله منها ويتهجى الحروف بصعوبة، كل هذا التعب فى حروف أستطيع أنا الصغير أن أقرأها.

هذا المساء كانوا يجلسون فى الفراندة يلعبون الكوتشينة، كنت ساهرا وأنا أبحث عن حضن حسنة، بدونها لن ينظروا ناحيتى إذا تكلموا ولن يردوا على إذا تكلمت، من بعيد أرى مروق شبحين فى الجنينة.. أوقن أنها حسنة، لم تكن يدها لغيرى، أتبعها إلى السطح وأخيرا أجدها، كانت تختفى فى قش الأرز، وكنت أنت فى تمامك، الشاطر حسن قام مسروقا، صرخت (يا مصيبتى)، أسدلت الفستان على ساقيها وخرجت من تحته تزيح عن شعرها قشة أرز.

ناديتها (حسنة) وأقبلت عليها أجرى فالتقفتنى فى حضنها، لحظات وسكنت رأسى على بطنها المتهدج، باعدت رأسى فجأة وقالت فى خوف إنها لا تجد الماشاء الله، أنت كم كنت بخيلا حين اختنق ضياؤك فجأة وتركتنى أنا وهى، نبحث وحدنا فى القش،، وبلا جدوى عن (ما شاء الله).

فى حضنها وقبل أن أنام قالت لى ألا أخبر أحدا أنها صعدت إلى السطح وأضاعت الماشاء الله، قلت إننى لابد واجدها فى الصباح، سألتها فجأة وهى تحكى لى عن ست الحسن هل ستذهب إلى البندر، ضحكت واستكملت حكايتها عن الأهوال التى خاضها الشاطر حسن ليعود بمهر ست الحسن.

نمت أحلم بست الحسن، لكننى حين فتحت عينى لم أجد حسنة بجانبى،كان الشباك مفتوحا وكنت أراها يسرقها العفريت سادرة فى استسلامها بين ذراعيه مثل أوزة مذبوحة يستجمع أجنحته ليحملها ويهرب بها إلى آخر الدنيا، هل سقاها الشراب المسحور ؟ فلم تقاومه إلا بغصة وانفلات ضعيف ورقبة الأوزة ذات آه أخيرة مخنوقة ومحتبسة ؟

مذعورا صحت (حسنة، حسنة)

العفريت ابتعد عنها وأسرعت بوضع يدها على فمى (بسم الله الرحمن الرحيم،إنت بتحلم يا محمد)، لكن العفريت دفعنى وهو يجرى فسقطت على الأرض أبكى، حتى جاءت أمى ومعها اللمبة نمره خمسة، قلت باكيا إننى رأيت العفريت وإنه كان سيخطف حسنة.

عادت ومعها كوب ماء بسكر ناولته لأمى، فقالت لى(اشرب)،

كتمت بكائى فى صدرها فقالت : (سمى وخديه فى حضنك يا حسنة)،

لكن حسنة باعدت صدرها عنى، وكان موضع يدى على الفراش باردا لزجا، فى الصباح، كانت الملاءه مشدودة القماش وعليها بقعة جافة مثل بقعة القهوة.

وعلى الأرض، علبه الدخان والبريزة المعدن،

•

لم تذهب بى إلى البيت الكبير، ولم تبحث فى القش، أمام الكانون كنت أرى عينيها تدمعان فى المساء، تسهر ترقبك من الشباك ولا تحكى عن الشاطر حسن .

إذا جاء لا ترد عليه وتنادى على كلما ابتعدت، أن أترك له البندقية، وأجلس بجانبها كنت مشدوها حين قبلها أمامى، لكن رأسها مال عنه بعيدا وبسرعة، وعندما سألتها بعد انصرافه لماذا تركته يقبلها وهذا عيب، سكتت وراحت تبكى،(هيخطفك البندر.. وهتسيبينى) بكل ما أوتيت يدى من قوة رفعت رأسها نحوى وصرخت (هيخطفك البندر،، وهتسيبينى)، هزت رأسها لا، وسقطت دمعة صغيرة على يدى فلم أصدقها وأسلمت قدمى للريح رغم أنها ظلت تنادينى(تعالى يا محمد).

بقامتى الصغيرة، متكئا على الباب نصف الموارب،كنت أرى السيارات تثير سحابة من الغبار وأسمع من البيت الكبير المواجه جلبة توديعهم، ولا أذهب كعادتى للسلام، وحين وضعوا الحقائب على السيارات أغلقت الباب، ودخلت الدار.

(خلاص، ماشيين) عيناها فى عينى لا ترمشان، مفتوحتان على آخرهما تبتلعاننى، تسابقت أنفاسها وتقطعت كأنها كانت تجرى بالمشوار، وسقطت مرة واحدة على الكنبة، كانت عيناها مثل عينى سمكة عندما قامت وحدهاإلى الحمام... هادئه... تحمل فى يدها الوابور.

فى الركن كان يجلس أبى، صموتا، مغلقا عينيه على وجعه، بدا صحن الدار خاليا فجأة حتى من أبى ومن أى شىء ووسيعا جدا، كنت وحدى تماما، أنتظرها وأنكمش فى دفئها الصغير الذى خلفته على الكنبة.

لما اندفعت تجرى من الحمام، كانت مشتعلة، سقطت مثل فراشة على يدى، اجتهد أبى ببطنه المنفوخ أن يقوم وأسرعت أمى فجذبتها من يدى، ألقت عليها الحصيرة ولفتها بها، حين حجبتها عنى دموعى وملابسهم البندرية، كنت أكتم أنفاسى وأسمع شهقتها الأخيرة .

أخذوها معهم، ومن صبيحتها لم تعد أبدا حسنة.

صرت أنام وحدى وأعرف أن حكايات الشاطر حسن يضحكون بها على الصغار، تحت مخدتى علبة الدخان والبريزة المعدنية.

أنت ما زلت فى سمائك، أنت يا من كنت صاحبها، فى الصباح سوف تختفى فى البئر وليس فى عينيها.

أسألك كلما جاءوا، فى حجرتى، أمام الشباك، على قش الأرز..... عنها، أنا الذى لم أجد أبدا الماشاء الله ولم أذهب إلى المدرسة رغم لسع جريدة أبى، ووقفت فى الصف مع الأنفار، أعود أجرى لأشترى من أجرتى علبه دخان لأبى، ومن وراء أمى أفتح صندوقا أخضر لأرى ملابسها نصف محترقة ونصف صابونة (بريحة) جفت وتشققت.

فى الصباح، أعرف أننى لن أجرى وراء العجلة، ولو ضربنى أحد صغارهم سأمسك الطوبة وأشج رأسه،(بتعمل إيه على السطح يا محمد؟) تحتضننى أمى، وأرفع رأسى قليلا وعيناى كثيرا، أسألك ولن تجيبى.... أين حسنة ؟؟؟؟؟

الجانب الآخر من النهر

تهذى جدتى أثناء نومها، وفى الشتاء تتبول كثيرا فى الفراش فأضطر لتغيير ملابسها باستمرار.

تقع غرفتها فى نهاية الردهة، عندما فتحت الباب سمعتها تهذى، تقول شيئا لا ألتقطه أبدا وإن كنت أميز منه كلمة(أمه)، زجاج نافذتها الملون يعكس خيوطا حمراء وزرقاء وصفراء على فراشها كالخيمة، حين أيقظتها، فتحت عينيها فى فزع قليل قد تعودته وسألتنى:

– من أنت؟

– هبه .

كانت تنام على جنبها وركبتاها مضمومتان تلامسان صدرها، لم تكن تستطيع فرد ساقيها منذ مدة طويلة بسبب تيبس المفاصل، حدجتنى بنظرتها وقالت:

– هل عاد جدك ؟

هززت رأسى، كانت صورته أمامى على الحائط محاطة بشريطة سوداء، فوق سريرها صورة أخرى له شاحبة، وقد وضع ساقا على ساق بجواره جدتى واقفة، تلمس كتفه بأصابع متوجسة.

– هل تمطر ؟

– نعم.

– أغلقى الباب علينا جيدا.

تحسستها، كانت ملابسها جافة، أعدت وضع المخدة الطبية تحتها، رتبت الفراش وأحكمت الغطاء عليها، قبل أن أنصرف سألتنى :

– هبه معك حاجة حلوة ؟

– لا..نامى أنت الآن.

– لن أنام قبل أن يأتى جدك.

أغلقت عينيها وراحت فى النوم.

حتى غرفتى تصطف صور الراحلين على جانبى الردهة، محاطة جميعا بأشرطة سوداء .

إلى أسفل تزدان الجدران بحزام عريض لكلمات فارسية لم أعرف أبدا معناها، المرآة الكبيرة القديمة غير واضحة الصفاء، وعليها تنتثر البقع السوداء كالبثور.

من شرفتي... يمكنني دائما أن أرى الجانب الآخر من النهر بأضوائه الشاحبة.. أحسست برغبة فى فتح النافذة، لسعنى البرد، فطوقت صدرى بذراعى ووقفت وحدى تحت المطر.

كانت النجوم تلمع على صفحة النهر، والمطر عند سقوطه يحيطها بهالات صغيرة فى تفتح مباغت لأزهار فضية، سرت قشعريرة فى جسدى وانكمشت فى داخلى، بينما كانت الأزهار تتفتح، تكبر، تتداخل فى بعضها حتى تتلاشى وتبدأ دورتها من جديد،

الموج هادئ يرتد من الشاطئ، المراكب التى تركها الصيادون تهتز فى حركة خفيفة مربوطة بالحبال ومثبتة جميعا فى الجرف الطينى الذى ينهار يوما بعد يوم تحت أقدامهم.

فى غرفتى تطالعنى دائما صورة عائلية ملونة، أبى ونهلة وأنا بضفائرنا الطويلة، ضفيرتها بشريطة حمراء وأطول من ضفيرتى بخمسة أعوام.

أول أيام مجيئها كانت يدها تستطيع أن تصل إلى الأسد الحديدى، ذلك المقبض الصدئ للبوابة الكبيرة

قالت نهله لخالى:

– هل ستتركنا هنا ؟

– ....

البوابه لا تطاوعنا، كانت تصر فى صرخات حادة، تفر لها العصافير، وتخدش الإيقاع الهادئ للنهر.

كانت عيناى الصغيرتان تتجولان بفزع فى أرجاء الحديقة وأرى الصبار مصلوبا فى الهواء، أخاف أن يقفز ويلتصق بى فأزداد التصاقا بخالى.

صوت خطواتنا على الدرج الخشبى، تثاؤب ملول للبيت العجوز الذى تدثر باللبلاب وأدار ظهره للدنيا مستقبلا النهر، على الغداء، كنت أحتضن عروستى، وكانت(تته) كما سمعت هبه تناديها تبدو رغم سنها قوية وتفيض فى حديث طويل مع خالى، رأيتها تشير إلى سلسلة نهلة قائلة :

– وهل هذا مصاغ المرحومه يا سى فاضل ؟

مد خالى يده إلى كوب الماء وقال:

– لا، لكن البنت ما زالت صغيرة ونخاف عليها، سأرتب كل شيء مع أبيهم.

وقتها لم يكن أبى بالمنزل، انتظره خالى طويلا، أخيرا انصرف بعد أن قبلنا باكيا، وهمست نهلة فى أذنى

– تته لم تحب ماما أبدا.

–لماذا لا نذهب مع خالى ؟

– سنبقى هنا مع تته.

– وسنرى ماما أيضا

– لا... قلت لك ماما مسافرة.

كنت أذكر القليل عن أمى التى لم تعد من سفرها، أما أبى فلقد عاد من سفره وأصر على انتقالنا لمنزل والدته، رجاه خالى أن نبقى معه لأيام ووعد أن يجىء بنا إليه.

حين دقت العاشرة قالت جدتى :

– هذا ميعاد النوم،

ألن يأتى أبى؟

– ....

– فى حجرتنا بكيت، اشتقت إلى مخدتى وخالى وبيته،

أخذتنى جدتى لأنام فى حضنها وحكت لى حدوتة، قالت جدتى :

كان ياما كان ، فى سالف العصر والأوان، بنت جميلة اسمها ست الحسن وكانت زوجة أبيها تغار منها لأنها أجمل من بناتها وذات يوم قالت البنات: نحن نحب بابا مثل السكر، وأنت يا ست الحسن ؟فقالت: -أحب أبى مثل الملح، فطردوا ست الحسن وصاروا يطبخون الطعام لأبيهم بالسكر.

ست الحسن لفت بلاد الله ولما هدها الجوع والتعب، جلست وحدها تبكى وكانت دموعها تلمع كالقمر.

لم يعد أبى إلا فى الصباح، أجلسنى على ساقيه وقبلنى، سألته:

- متى نخرج معا ونتفسح ؟

ابتسم لى وقبل أن يجيب جاءت نهلة، سقطت يده من يدى، اتسعت عيناه وتركنى أنزلق من على ساقه، لم يقبلها، أمسك يدها ووضعها بين خده وكتفه ثم أخذ نفسا طويلا ،قال وهو يفك ضفيرتها

- شعرك سيكون أجمل من غير ضفيرة.

راح يمسح على شعرها بيده، كنت أتمسح فيه كالقطة لكنه

ظل يرمقها طويلا، ولا يسمعنى وأنا أناديه

قالت جدتى وهى ترى الشريطة الحمراء ساقطة.

– تشبه أمها.

لم يرد عليها، التفت لى وقال :

– نعم، سنخرج ونتفسح، سنعمل كل شىء.

كان أبى يسافر إلى الخليج، عند عودته كانت أشجار البنسيانا الحمراء تملأ الحديقة بورودها الحمراء الناعمة، كان يحب اللبلاب ويسمع منى حكاياتى، يتركنى ألعب مع أحمد ابن الصياد، يخرج معنا كثيرا ويشترى لنا الآيس كريم والشيكولاتة، لكنه كان يمسك بجنبه كثيرا وهو يضع يده الأخرى على كتفى وتقول جدتى:

– ارحم صحتك يا أحمد .

قبل سفره الأخير أخبرتنى نهلة أنها استيقظت فى الظلام على قبلاته وصوته يمتزج ببكاء واهن يقول:

– لا تخافى يا حبيبتى، سأحكى لك حدوته.

– لكن أنا كبرت يا بابا.

– وجاء إلى المدينة أمير وسيم، على حصان أبيض، ولما رأى

دموعها أحبها وسألها عن سر بكائها فحكت له حكايتها، ولما فرغت، قال الأمير إنه جاء من بلاد بعيدة وإن الناس في بلاده عندهم نهر كبير من العسل يشربون منه ويطبخون به طعامهم، لكن المرض أصابهم وسال على الطرقات لعابهم وما عادت لهم شهية للطعام، فخاف عليه السلطان ونصحه الحكيم بالسفر والفرار، إذ ربما يجد دواء في الأمصار، وكانت ست الحسن تسمعه ودموعها تقف على شفتيها حزينة، دافئة مثل لؤلؤة التاج فمال عليها وقبلها.

وعندها غاب الأمير عن الدنياوداخ وظل يشرب دموعها ولا يرتوي، ولما سألها من أين يأتي هذا الطعم الغريب الجميل، سارت به إلى البحر.

استيقظت على صوت بكاء، فسألت عما حدث لكن أحدا لم يرد،

جاء ناس كثيرون، لطمت نهلة خديها ولم تدمع جدتي، كانوا جميعا يرتدون السواد، جلس شيخ يقرأ القرآن وحوله وجوه لا أعرفها، دارت عليهم القهوة في صمت شديد، وجاء خالي فلم يلعب معي بل ظل صامتا يستمع، حين ذهبت إلى نهلة أسألها

أن تسرح لى عروستى صرخت جدتى:

- ادخلى غرفتك .

سألت عن أبى ومتى سيعود لكن لم يجبنى أحد

قال لى أحمد ابن الصياد عندما أخبرته بسفر أبى

- ركبوا المركب وذهبوا به إلى هناك.

أشار إلى الجانب الآخر من النهر، لم أر شيئا سوى الغاب الطويل الأخضر تعلوه قرية واطئة صغيرة .

- أبى أيضا، رأيتهم يلفونه فى ثياب بيضاء، وضعوه فى المركب ثم عادوا من غيره، بعدها لبست أمى السواد، وقالت لى إنه مسافر

-ومتى يعود؟

وكنت دائما أرى الجانب الآخر من النهر من شرفتى، من شرفة جدتى، من كل الشرفات، كانت جدتى تجلس معى فى الشرفة تتدثر بسوادها، تمسك بى جيدا كى لا أسقط.

مراكب الصيادين تهتز والجرف ينهار تحت أقدام أحمد الصغيرة، الغروب يملؤنى رهبة والبرد يلسع قلبى.

الشمس تنزل حمراء باكية وتختفى فى الجانب الآخر من النهر، آخر خيو ط النهار القصير.. تنسحب رويدا رويدا.

عندما أشرت إلى شجر البانسيانا وقلت إن ورودها الحمراء تظهر لأول مرة وأبى ليس هنا، بكت جدتى ولما حاولت أن تقوم صرخت من رجليها، دخلت غرفتها وقالت إن البرد هذا العام شديد، وكانت النوافذ الملونة تشرب الضوء وتلقى على كل الغرف شبكة من خيوط حمراء وزرقاء وصفراء

قلت لأحمدوأنا أحمل ورودى الحمراء:

– أبى يحب شجرة البانسيانا، خذنى لأريهاله، ربما عاد وعادت أمى معه.

فى الزورق، كنا نهتز على صفحة النهر، أرتدى فستانى الجديد وحذائى الأبيض الذى اشتراه لى أبى،أضحك وأحكى لأحمد عما سأفعله حين أرى أبى، كيف سيقبلنى ويهدهدنى على ساقيه، قلت له إن أبى جميل وشعره أسود فاحم مثلى

قال أحمد إن أباه طويل مثل نخلة.

كنا نضحك ونلمس الماء بأصابعنا، لكننا حين وصلنا لم نجد سوى الغاب الطويل الأخضر الممتد، كانت أقدامنا تغوص فى

الرمال الناعمة، العيدان أوراقها تتشابك، أمسكت بيد أحمد وبحثنا طوال النهار وكنت أنادى عليه، ناديت حتى راح صوتى وأخذ أحمد ينادى معى بابا بابا

بكيت،نظر أحمد فى وجهى وبكى هو أيضا، بكينا معا، ولما تعبنا من البكاء ولم تعد دمعة واحدة تسقط من عيوننا، جلسنا على الرمال، جسدانا الصغيران ينتفضان، نهز رأسينا معا، فوقنا كانت الشمس حامية وطيور بيضاء تحلق فوق النهر الذى كان يلمع بشدة وعندما جاءوا للبحث عنا، قالت أمه وهى تضم حاجبيها إن أبى هناك، وكان اتجاه أصابعها نحو القرية الواطئة، فى الزورق كنت بلا ورود، والشمس كانت تميل وتختفى هناك

قالت المرأة لجدتى

– لا تضربيها يا ست إنها يتيمة، ليلتها كنت أحتضن عروستى بشدة، وأحكى لها

.... ومرت الأيام، واشتاقت ست الحسن إلى أبيها فجهزها فى مركبة ملكية وعادت إليه ومعها خلعة سنية، ولما رأت أباها قد ضعف عظمه وسال لعابه وعاف الطعام واستند على الحائط من

الوجع، بكت، واحتضنته بعد طول بعاد، وراح يشرب دموعها ولا يرتوى، ولما جاءوا له بالطعام أكل وهو يغص بالندم.

ورحلت ست الحسن، لكن آثار قدميها كانت لا تزال على الرمل....

قال الطبيب وهو ينظر طويلا إلى نهلة

– إنها تشكو من تيبس فى المفاصل.

كانت جدتى قد أوغلت فى السن، أصبحت عيناها رماديتين كالشتاء، التصق جلدها بعظمها، العروق الزرقاء تسعى تحت بشرتها الشفيفة، تستيقظ مبكرا وتهذى وحدها فى الشرفة، وبعد أن خطبت نهلة للطبيب، لم تعد جدتى تقوى على الحركة فأضطر لحملها إلى المغتسل، وأرى ترهل نهديها الخاويين مثل أكياس فارغة، كانت حلمتها تتشقق وبطنها يتهدل لحمه حتى يصل إلى ما بين فخذيها.

وبعد أن زفت نهلة للطبيب، لم تقو على تحريك ساقيها وسألتنى أن أترك النافذة مفتوحة، وفى الصباح كان الفراش مبتلا ويفوح برائحة عطنة.

قالت لى وأنا أوقظها

– من أنت؟ نهلة أم هبة؟

وسألتنى هل عاد جدى أم لا؟ أشفقت عليها، ارتبكت واستحييت أن أحدثها.

من ذلك الصباح البعيد ... وجدتى فى خيمتها ذات الخيوط الصفراء والحمراء والزرقاء تحدثنى عن كل من رحل كأنه لا يزال موجودا بيننا.

ازدادت ساقاها انحناء وتيبسا ولم تعد تستطيع أن تجلس بصورة عادية، تنام على جنبها وأحيانا تقعى وتدخل فى بعضها، تأكل بشراهة غريبة، وبعد قليل تلفظ معدتها كل شىء.

بلا ضجر، أغير فراشها وملابسها كلما تبولت، وهى تسألنى عن ضفائرى،تطلب منى أن أنام فى حضنها وتقول إنها ستحكى لى حدوتة لكنها لا تجد ما تقوله

(...)

كانت نهلة تحاول أن تحملها معى، رغم مقاومتها إلى المغتسل، وكانت الرائحة قوية فتقيأت، تركتنى أحملها وحدى إلى الحمام، خرجت تجرى مضطربة وعادت وقد أغرقت ملابسها فى البارفان ولم تتوقف لحظة عن تشمم نفسها.

قلت بهدوء وأنا أغير لجدتي ملابسها قبل مجيء الطبيب

– لا فائدة ؟

– ماذا ؟

– كنت مثلك، أظن أن العالم كله يشم هذه الرائحة، لم تكن في جسدي كانت في خياشيمي فقط.

تشممت نهلة باطن يدها وملابسها من جديد، اقتربت مني لتسألني هل ذهبت الرائحة أم لا، قلت وأنا أفتح الشرفة.

– لا أعرف فالرائحة لم تخرج يوما من أنفي.

وأنا أغير ملابسها، رأيت قروحا غريبة في مؤخرتها، وقال طبيب آخر ينظر ناحيتي بلا اهتمام وخلع قفازا من البلاستيك:

إنها مصابة بقرحة الفراش، استعملي هذه المضادات والمراهم ويستحسن مخدة طبية.

حاول تحريك ساقيها ففشل، رفع حاجبيه وهو يراها تتكوم هكذا، وقال إن ركبتيها يابستان تماما ولن تفرد ساقيها أبدا.

في الشتاء، تزداد القروح، تملأ مؤخرتها كأنما نهشها ذئب، صار شكل اللحم شائها، والقروح بلونها البني المحروق... غائرة، يسيل الدهن منها كالصمغ، ساقاها تتورمان أحيانا وتمتلئان بما يشبه الماء، تدخل في غيبوبتها ولا تأكل مطلقا،

تضمر شيئا فشيئا، ويقول الطبيب وهو يعلق لها محاليل الملح والسكر

- ما زال القلب يعمل رغم ضعفه، لكن مقاومتها لأى ميكروب ضعيفة.

أخشى عليها الشتاء، فى المساء أذهب إلى غرفتها، أحرك جسدها يمنياً ويسارا لأدفع الدم إلى ساقيها، أغير فراشها وملابسها، الأرضية الخشبية، لكثرة ما استعملت من ماء، رطبة تحت قدمى، الرائحة قوية تملأ الغرفة.

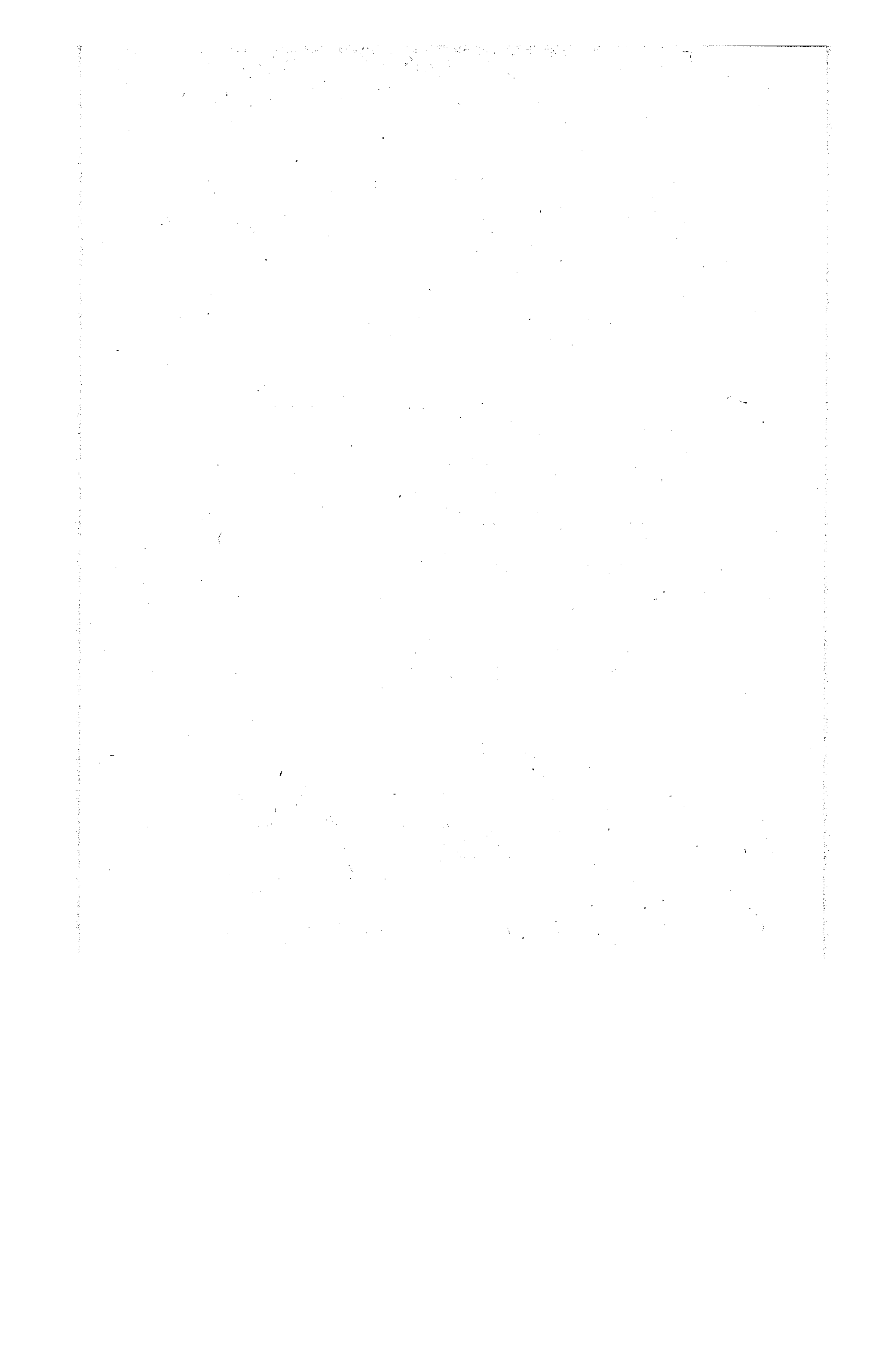
فى المغتسل، أغطس أنفى فى الماء ورغما عنى....أقف عارية، أرقب صورتى تتموج فى المرآة الكبيرة وتلتصق دوائرها السوداء كالبثور على وجهى وكل جسدى ، ويأتى صوت جدتى واهنا :

- هبه معك حاجة حلوة ؟

من خلال النوافذ يغزل الضوء شبكة من خيوط حمراء وزرقاء وصفراء.

صمت بارد يشربنا، الليل خلف الستائر ينبض، القوارب تهتز على الماء.

والجانب الآخر من النهر هادئ.....هادئ تماما.



هذا الصباح

حين استيقظت، كانت ساعة الحائط تشير إلى السابعة والنصف، بقيت فى الفراش قليلا أعاند آلام الظهر وذكريات كابوس الأمس، اليوم بداية الامتحانات ولاحق لى فى أجازة عارضة، قمت بصعوبة وحاولت أن أقوم بتمارين نصحنى بها ذو الرداء الأبيض (انحناؤك أضعف أربطة الظهر تماما)، استعملت الدهان الموضعى ولم أجد بعلبة الفولتارين حبة واحدة، تذكرت أن لى بالوظيفة سنوات ولم ينعموا على بعد بدفتر تأمين صحى، قررت التشاجر مع الإدارى وليحدث ما يحدث، حاولت فتح الباب أكثر من مرة عاندنى، طرقته حتى فتح لى ذو النظرة الحزينة التى أورثنى أياها وقد عاد بطبق الفول والجريدة، ذكرنى أن أحضر معى نجارا لإصلاح الباب، طلبت شايا فتمسكت ذات ابتسامة الصفح بأن الإفطار مهم ، سعلت وأمسكت بظهرى فنظرت إلى السيجارة عاتبة.. (لماذا تعاند؟

الكحة تؤلم ظهرك، وظهرك يؤله السفر) .

السفر يشق دائما عليها وعلى، السفر تؤله رؤية ساق مبتورة ذات ستة عشر ربيعا .

استعدت وجه ذى السماعة الطبية وقد ترك الرداء الأبيض وجاء إلى البيت ليغير على الجرح، نفس الوجه ذى الرداء الأسود الذى بتر ساقى تحت مقصلة كبيرة سوداء بالأمس، خرج ذو اللحية الصغيرة من حجرته، لم يبادلنى تحية الصباح، أفتى أن قضية التعويض على شركة الأتوبيس حلال، مد أنفه واستنشق ثم قال إن من تقلقه نقوده يمكنه أن يتبرع بها إلى مسلمى البوسنة الذين يذبحون فى الشوارع، أطفأت السيجارة دون تعليق،فى البروجريه كانت الأنباء عن عدم وصول المعونات الطبية إلى البوسنة، فى باب الأخبار المنوعة قرأت عن سرقة لوحة لفان جوخ، وأن الأطباء الأمريكيين أعادوا زرع ذراعين قد بترا تماما وأن الفضل يرجع إلى نبوغ الضحية الذى استدعى رجال الإسعاف وحده ونبههم إلى ضرورة وضعهما فى الثلج حتى الوصول إلى المستشفى، ذو النظرة المقهورة كان وحيدا حين

وقع على قرار البتر، لم يبك ولم يسقط مغشيا عليه، بل عاد إلى ذات ابتسامة قديمة توأم ابتسامة أمى، وقال إنه صلى على الساق المبتورة ودفنها فى مقابر المسلمين بعد أن غسلها لكنه لا يقبل عوضا فيما أخرجوه له من الثلاجة.

فى الطريق إلى المدرسة، كانت أسراب المرايل الزرقاء مرحة جدا وصباحية جداً، حاولت أثناء السير أن أكتشف فائدة ساق واحدة، وكيف تختلف ساق صناعية عن أخرى من لحم ودم، قلت فى نفسى إن فان جوخ كان غبيا جدا حين قدم أذنه لحبيبته، فجأة قفزت مذعورا إلى الرصيف على صوت نفير الأتوبيس، ضحكت ذات مريلة زرقاء، استعدت روحى الهاربة ورحت أرقبه وهو يستدير فى الملف، هاجمتنى تفاصيل الحادث كما رويت لى، حاولت أن أجفف دموعها ودموعهم كان حذاؤها الأسود معجونا بدمائها، محشورا بين الرصيف والإسفلت، يختلط عظمها بلحمها بجورب المدرسة الأبيض، انتفضت، دارت رأسى، رغم كل شىء لم تفقد وعيها وكتبت وهى على الأرض رقم تليفون أبيها، كالعاده تأخر الميكروباص، قابلت صديقى الشاعر فقال

لى (معرض الكتاب فى الأقاليم أكذوبة يا صديقى... الكتب لا تستحق السرقة)، طلب منى محرجا وعلى سبيل السلف جنيهاً، سألته قبل أن ينصرف عمن كتب وصيته بدمه، أخبرنى أنه كليب، تذكرت أمل دنقل (لا تصالح)، فكرت فى زيارة المعرض والبحث عن الديوان، تحسست جيبى فلم أجد سوى القليل، اللعنة على الفولتارين والمراهم والأطباء وكل الإداريين.

فى الميكروباص، منعنى السائق من التدخين، شكرته فى نفسى، سيرحمنى من السعال ووجع الظهر، استمعت إلى شريط التسجيل، فوجدته يعلن بهستيرية أن تارك الصلاة كافر، وأن المتكاسل عن صلاة الجماعة فى النار، أشعلت سيجارة رغم نظرات السائق وقلت متوثبا لمعركة (ملعون أبوه) .

عند البوابة كانت ذات النظرة المقتنصة فى انتظارى تخبرنى أن الساعة قد تجاوزت الثامنة وعلى أن أوقع فى دفتر التأخير، نظرت إلى كشوف الملاحظة فلم أجد اسمى، وسألت عن الإدارى، قالوا إن أمه قد توفيت، رثيت له وهربت فكرة التشاجر من رأسى فورا، فى الغرفه ذات العشرين مدرسا لم

أجد سوى ذات العينين الخضراوين والصليب الذهبى.

قالت إن ذات النظرة المقتنصة لا يحق لها أن تحرجها فى الفصل، وأن تصفع البنات بكل هذه القسوة، أضافت أن التحقيق لا يهمها وأن الرب وحده يعلم كم تحبهن وتحترق من أجلهن، وسألتنى كيف تعلمهن نطق سته عشر حرفا متحركا والكتابه الفرنسيه وهن لا يكتبن أسماءهن صحيحة بالعربية، ذات العينين الخضراوين تضوأت عيناها كقطة فى عتمة الغرفة، وقالت إنها تعرف السبب وأن الجميع يعرفون، وأنها أصبحت تخاف جدا من كل شىء.

قامت تلقى المنديل الورقى خارج الغرفة رغم المفرش القذر، الكراريس، والمناديل المستعملة الملقاة فى الأركان ولم تعد.

فى الفسحة، زارنى ذو اللحية البيضاء، قال يوصينى بابنته إنها ترسب دائما فى الرياضيات ويأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وإنه يدفع ثمن الدروس من ملاليم مكتب التحفيظ، ولو رد الله له نور عينيه لأصبح مدرس إنجليزى، سألنى لماذا أتخلف عن صلاة الجماعة(سرقوا حذائى يا مولانا)، لم يضحك وقال

بتأكيد هذا عمل مخبرى الحكومة لصد الناس عن المساجد، وإنهم يجرجرونه بعد درس المغرب إلى المباحث، سألته عن رأيه فى مقتل فرج فوده، رد بأنه كلب وراح ولا داعى أن أخوض مع الخائضين، نادى على مقصوفة الرقبة، فدخلت ووجدتها هى نفسها ذات الخصلة الصفراء وبنطلون الجينز الضيق، قرصها من أذنها فصرخت، صرخت وهو يغير لها على الجرح ليتأكد من عدم وجود صديد.

ارتجفت قشرة رأسى ووعدته أن أهتم، رمقتنى عيناها الآسرتان وانصرفت، سألنى وهو يضع يده فى يدى لماذا لا أتزوج، تطوع بالبحث عن عروس لى، قلت إننى أثق فى اختياره قال :(هل تثق فى ضرير؟) همست فى أذنه إن شعر مقصوفة الرقبة الأصفر لم ترثه منك يا مولانا، ضحك ولكزنى فى كتفى وهو يوصينى بعمل الواجب.

وحدى فى الغرفة، كأنت ساقى باردة، الغرفة مقصلة باردة بطيئة لا تقطع الوقت، كان صمت ثقيل يفوح من الغرفة، وهى على السرير صغيرة، شاحبة، مبتورة الساق وطفلة جدا فى

بكائها، هرعت ذات العينين المقهورتين أيضا واحتضنتها، مسحت على رأسها، أدارت وجهها ناحيتى تعض علّى شفتيها كى لا تبكى، وبعد خطوات من غرفة العناية المركزة سقطت على الأرض، وسألتنى أين ذهبت الدعوات، فلقد صلت الفجر ودعت لها، نهرها ذو اللحية السوداء بشدة وقال لله ما أعطى ولله ما أخذ، قالت إنها لن تبكى، أجهشت بالبكاء وأضافت بتوكيد أن الله قادر على أن يخلق لابنتها ساقا أخرى، نظرت فى عينى فمددت لها يدى وكان أخى يستغفر لها ربه.

ذات العينين العسليتين اقشعر جسدهاوأخفت وجهها وصرخت ترجونى ألا أكمل، صرخت بقوة فى وجهى وأنا أحملها فأنزلتها إلى السرير، بكت وقالت وأنا أضع البطانية فوق ساقها أننى سأخبطها، خرجت ذات العينين العسليتين من الحجرة وقالت إنها تكره التدخين، كانت تحدثه وهو يوقع لها فى دفتر أعمال المكتب، قال بصوت مسموع وهو يولينى ظهره إن رقم لجنتى ١٢ وعاد يهمس لها، منذ فترة صارت لا تنصت جيدا إلى ما أقول، عيناها تتسللان كثيرا إليه ويتبادلان ابتسامات

تقلقني،خطت معه بعيدا عني، خطواتها خفيفة جدا لاتلمس الأرض، توقفت مبتسمة كأنما ترفرف طائرة في مكانها، عادت لتقدم لي زجاجة كوكا كولا احتفالا بنبأ سعيد، اكتشفت لأول مرة أن حاجبيها يرتفعان كثيرا بلا سبب حين تتحدث ويأخذان تقطيبة توحي بقسوة وشرود وقبح، كيف تتزوج فتاة مثلها صدرها صغير وأردافها كبيرة مائعة؟ ولماذا تغطي شعرها ما دامت تضع كل هذه المساحيق؟! أقسمت لهم جميعا أنه لم تكن تجدي أية عملية تجميل، أخذني إلى الثلاجة وسألني وهو يمد يده بالقلم ما رأيك؟

في اللجنة، كانت ذات الشعر الأصفر بدون الإيشارب وتتحدث خلسة مع زميلتها، نظرت لها أكثر من مرة، واجهتني بقرف ولا مبالاة، تكرهني بلا سبب، وتصفعني دائما بإغلاق الشرفة، ما ذنبي وقد استيقظت في الصباح الثلاثين فوجدت الشعر الأبيض صار أكثر من أن ينتزع؟، وأن شارعنا قد تفتحت به سبع زهرات في السادسة عشر، واندهشت حين لم ترد أبدا على صباحاتي، وحركت ذات الشعر الطويل الأسود

شفتيها بشيء لا أظنه لطيفا، قلت لن أهتم بأنها جميلة، وأن أباها هو شيخى القديم، لن أدع عينى مفعوصة مثلها تثيراننى،(لا تتكلمى مرة أخرى)، صرخت (هذه مصيبتى وحدى فلا تخبرنى ماذا أقول لله)، شتتتنى عيناها وهما تلمعان فى تحد واضح،نظرت إلى زميلتى المدرسة فوجدتها نائمة، هممت بسحب ورقتها، تراجعت، (ماذا تفعل يتيمة ذات شعر أصفر وتوهج صارخ مبكر، وأبوها شيخ ضرير إذا فشلت فى التعليم؟)، ووقعت نظراتى على ساقها، عادت إلى الحل والحديث منتصرة، اقتنصت نظرتى، وقالت : (أكلتها الفأرة)، وحكت لى عن اثنين من الصعايده قطعا سيقان معزتين ليميزا بينهما رغم أن الأولى بيضاء والثانية سوداء وبكت، كان على أن أقول شيئا وأن أحذف محموما من ذاكرتى كل مايتعلق بالساق والقطع والبتر والفصل والمشى والرقص والأحذية، حتى الخشب والبلاستيك والأجهزة، سكت وجلست بجوار زميلتى النائمة.

دق الجرس فانصرفت، عند البوابة قالت إنها بحثت عنى لتودعنى وإنهم أخلوا طرفها بسرعة شديدة، رجتنى أن أتصل

فنحن أخوة فى الله رغم الدين، ارتعشت يدها وهى تكتب رقم تليفونى، وكادت تبكى قلت : (لا يهم سأتصل أنا)

جرت إلى الحجرة تنتظر انصراف الجميع .

هل تجدى الكلمات؟! أنت نفسك تعرف أنها تسبب الصداع الصداع ولا أكثر.

قررت أن أعود ماشيا، وجدتها تركب سيارة ذات موسيقى مرتجة تهزنى، رفعت عن عينها خصلة الشعر الأصفر ونظرت فى عينى بثبات، قلت فى نفسى إن تدريس الرجال فى مدارس البنات شىء سخيف وإنهم فى سبيلهم إلى إلغائه قريبا على أية حال.

وحيدا أمشى، الناس اليوم صاخبون بلا سبب، وحدى تماما لا أملك ثمن الديوان، ابنة أختى بتروا ساقها كحل سريع مريح، ابنة الجيران تعادينى بلا سبب، ابنة شيخى تدير رؤوس المدرسين ولا تهمها النظرات كثيرا حين تركب سيارة، فاتن ستتزوج المدرس الأول، غادة رقيقة جدا ومسيحية جدا، شيخى على حق تماما لأننى لم أستكمل حفظ تسعة وعشرين جزءا من كتاب الله، أخى ليس على حق تماما حين أقسم بكتاب الله ألا

يزورها وأن يخاصمني عندما قلت له إن الله يعرف لغه أمهات السيقان المبتورة، وقلت لنفسي حتى الرب يغفر قسوة أصحاب السيقان المبتورة، وسألته أن يبارك ساقا صناعية يفصلها عن توأمها ستة عشر عاما، وأنه الوحيد الذى سيحاسب فرج فوده،

كنت قد وصلت إلى المنزل، حياني ذو المرسيدس العائد من الكويت فلم أرد التحية، سرق سمائي، ارتفع بالبناء المواجه إلى ستة أدوار رغم تعليمات مجلس المدينة، وخرج مترا كاملا إلى الشارع الضيق ، حتى في الصيف لا أرى سوى مربع صغير ونجمتين وقمر غائب دائما رغم أن أوراق النتيجة تعلن تمامه، أغلقت باب غرفتي بشدة خلف كل شيء.

صرت وحدى، تذكرت أنني نسيت موضوع النجار، ناديت رغم أنني الوحيد بالمنزل، هل سافروا إليها؟ نظرت إلى الساعة، قلت لعل أخي في صلاة الجماعة، الغرفة ضيقة أكثر من كل الأيام، مزدحمة بالأوراق والكتب، ضيقة جداً، الساعة المعدنية تدق بشدة، بدأت أخلع ملابسي، توقفت، كانوا جميعا حولي، في الأركان، فوق الأثاث، ذا الرداء الأبيض لا تدخن، ذات العينين

العسليتين لا أحبك، ذا اللحية البيضاء لا تجدف، ذا اللحية الصغيرة لست أخى، ذات الساق الصناعية تطفو فوق الغرفة ثقيلة، صامتة، تذيبنى، ترتجف فى رأسى وتبدو حقيقية جدا.

دقات هذه الساعة أسرع من المعتاد، ضاق صدرى، شعرت بارتخاء مفاجئ فى عضلاتى ورغبة شديدة فى التقيؤ، خلعت ملابسى وقلت إننى فى حاجة إلى كوب شاى وحبة أسبرين وكتاب جيد.

دارت رأسى بشدة، الغرفة تضيق، تضيق، الجدران تقترب، وخدر ثلجى فى ساقى اليمنى. اليمنى بالتحديد فأسقط على الأرض، يا إلهى الجدران، السقف، الأثاث يقتربون جدا، السرير، المكتبة على بعد سنتيمترات منى تقترب، تلامسنى، أحاول التملص ولا فائدة، أطبقت على، تقترب أكثر، آصرخ، تضغط على ضلوعى، أصرخ، تسحقنى تماما فأصرخ، أصرخ بكل قوتى وصرختى حقيقية جدا ... ولا أحد.

أسباب للصداع

الرنين

انتظارها طويل، يمتد من الثامنة إلى الثانية، موعد مجىء الأستاذ من المحكمة، لايقطعه سوى رنين بارد، أو بعض الزبائن يسألون عن الأستاذ وينصرفون بعد أن تخبرهم أنه يستقبل الزبائن من الخامسة إلى الثامنة مساء.

فى التاسعة يخرج الأستاذ، ترتب حجرته وتغلقها،تبقى فى الصالة، تجلس على المكتب الإيديال وتدق على الآلة الكاتبة، تتصلب أصابعها، ترفع الطرحة قليلا عن رأسها وتلعن الحر، لا تجد ما تفعله، فالمجلات اللبنانية قرأتها وبدت وجوه الممثلات عليها مهترئة وألوان الماكياج أقل صراخا، التليفون ذو القفل النحاسى الصغير يصفعها بعدم الإمكان، النافذة المغلقة تمنع عنها الهواء، تمنع أيضا قليلا توليفة الأصوات الخشنة للبائعين والنجارين فى سبابهم الجنسى المقزز، لو فتحت النافذة سيصدمها البائع المجذوم الذى وقف يقطع البطيخ بيد واحدة

والرائحة الممتدة الكثيفة المتلولبة لزيت الطعمية وزفارة الفراخ المذبوحة.

جاء صوته ليغتال كل الأصوات، يوقف أنفاسها، تغمض عينيها فيكتسى العالم بالسكون ويغمر الأشياء صوته

...صوته فقط.

كان الرنين خاصا وناعما، صوت أرستقراطى مؤدب يسأل عن الآنسة (هدى)

مجرد نمرة خاطئة، قبل أن تنهى المكالمة سألها فجأة عن اسمها، همت بوضع السماعة، لكن شيئا استمهلها قليلا.

(أنا مش بأعاكس والله.. لكن صوتك يدخل القلب، تقدرى تقولى أجمل صدفة فى يوم كئيب ممل)

لا تذكر هل ابتسمت لحظتها أم لا.. اسمى علاء ...كلية التجارة سنة ثالثة)

انسابت معه فى الحديث، بعد نصف ساعة تنبهت وخافت أن يتصل الأستاذ.

شهر كامل.. تعلمت فيه كيف تميز رنينه الخاص، صورته الضبابية تتكثف يوما بعد يوم دون أن تتحدد تماما، بين الخوف

ولذة الاكتشاف، تزداد دقات قلبها قليلا، الصباح، زهرة بيضاء تتفتح فى روحها.

شهر كامل والتليفون يحمل جرأته الصريحة وأسئلته المباغتة(يا ترى إنت حلوة زى صوتك؟)، يسألها أن تصف له نفسها، تخرج من حقيبتها مرآتها الصغيرة، تتأمل نفسها كأنما للمرة الأولى وتعجز عن الرد، تندهش حين يسألها

(إنت لابسة إيه دلوقت.. عايز أحس إنى شايفك)

ترد أنها ترتدى فستانا أخضر، وقبل أن تذكر لون الطرحة يقول (وطبعا محجبة) تندهش

(عرفت إزاى؟) يضحك ولا يفسر ذلك.

تخبره أنها تعمل عند الأستاذ منذ سنتين وأنها فى التاسعة عشر ولها خمسة أخوة، تخفض صوتها قليلا وتضيف أنها... دبلوم، يقول ببساطة (وإيه يعنى؟) تستدرك وتقول بسرعة إنها كانت الثالثة على مدرستها، وكان يمكنها دخول الجامعة لولا الظروف.. (طبعا... كل بنات الدبلوم كانوا هيدخلوا الجامعة لولا الظروف)، لحظتها...لحظتها فقط، تضع السماعة... ويصبح كل الرنين سواء.

الــولـــد

لا يشـبـه زبائن المكتب، طويل، وسـيم، ذو جـسـد رياضى، يرتدى قميصا حريريا مشجرا، من عروته الأولى المفكوكة يطل شعر صدره الكث، بنطلون أسود واسع على الموضة، يتأملها فى صمت ولا يسأل عن الأستاذ

– (أى خدمة؟)

– (اتخيلت شكلك كتير لكن إنت أحلى ألف مرة)

ذقنه حليق، وجـهـه منتـعش، تفـوح منه رائحـة قـوية، خـصلة مشـوشة من شعره تتدلى على جبينه، يجلس ويخبرها أنه جاء ليعتذر وأنه كان مشغولا عنها بالامتحانات .

لا تستطيع التحكم فى أنفاسها، ابتسامتها، دقات قلبها. يواجهها بابتسامة عذبة ويحكى، حين تشير الذهبية للحادية عشـر، ترتبك رغم أنه ليس مـوعد مـجىء الأسـتـاذ، (إيه يعنى هاطلب منه استشارة) .

يعرض أن يمر عليها لتوصيلها، تغضب وتقول (أنا مش بتاعة الكلام ده).

مشـــاويـر

تنصرف فى الثانية لتعود فى الخامسة، الطريق.. طويل تقطعه مشيا أرحم من سفالة الكثيرين فى الميكروباص حيث التلامس المنفر والتلاصق البغيض، لو ظلت فى المكتب ستضطر لشراء ساندوتش أو أكل الرغيف المطاطى والجبن ولا تعرف كيف تبتلعه فتبقيه ملفوفا فى حقيبتها.

الطريق...طويل. تقطعه بخطوات سريعة لا تلتفت إلى اليمين أو إلى الشمال كما علمتها أمها، حجابها لا يمنع تعليقات التجارين، بالأمس، بالأمس فقط، توقفت لها سيارة نزل منها رجل عجوز قليل الأدب، ألح فى كلماته فتمتمت بالمعوذتين وأسرعت فى خطوها.

الآن تقابلها الأسراب الزرقاء لبنات الثانوى العام بتسريحة الكاريه دى جارديه والماشات، أيام مدرسة التجارة كانت الناظرة تشترط الإيشارب الأبيض، حتى أبلة مادلين حين أصبحت الناظرة لم تتنازل عنه، والبنت تحجبت منذ وفاة أبيها، واظبت على الصلاة، باركتها أمها وقالت (الفقير مالوش إلا ربنا) فلماذا اندهش حين أخبرته أنها تصلى.

كانت تتمنى لو تخبره كم هى حزينة، فالأستاذ لم يتركها تذهب إلى فرح إحسان،وإحسان زارتها بالأمس وأعطتها الدعوة بورقها السميك الناصع والصورة الجميلة لبنت فى فستان الزفاف بطرحة طويلة بيضاء، تنتظرها عربة ملونة، واسم إحسان مكتوب بالذهب، تعترف أنه أروع بكثير من توقعاتها لو كان أبسط من هذا قليلا.

أسباب للبكاء

البيت واللمة والغداء وأنس أخوتها وشقاوة العيال، تقول أمها وهى ترفع رأسها قليلا عن الماكينة(ربنا يرحمك يا بنتى من المشاوير، الراجل القادر يشترى الغلبانة بالسبعين جنيه)

ويقول أخوها وهو يضع الطبلية (ما هيتك لك مش هنعرف نجهزك).

الماهية لأمها، تقتطع جزءاً صغيرا لمصروفها، لا تنفقه، تشترى به بعضا من ملابس النساء السرية الناعمة ذات الألوان الدافئة، ستمرر يدها بسعادة على وبرها الخفى وتحس بملمسه المنعش المدغدغ وتخفيها مع أسرارها القليلة.

أخوها أبو النور بعث لها طقما صينيا جميلا وسجادة عجمية، أرسل قطعة قماش لكل أخت من أخواته الأربعة، فى الشريط يقول إنه مبسوط رغم الحرب فى العراق وماذا فى مصر المحروسة غير الجلوس على المقهى ولعن أولاد الكلب أصحاب الفلوس.

أمها تقيس عليها الفستان وأختها انشراح المطلقة تنظر إليها بحسد، الغلبانة طلقها المكلوب زوجها ويلاوعها فى دفع ثلاثين جنيهاً النفقة، لكنها لم تذهب إلى فرح إحسان.

تقوم بملل إلى غرفتها/غرفتهم، تحلم لو تنتظرها غرفة خاصة لاثنين، اثنان فقط بدلا من هذه الغرفة المشاعة.... التى تشاركها فيها أمها وانشراح وأولاد أخيها سعد، تركوا غرفة كاملة لأحمد لأنها سنته النهائية فى كلية الطب، البنت تصلى العشاء، تغالب نومها وتجلس أمام التليفزيون تشاهد المذيعات الجميلات، بنات الإعلانات، وتتمنى لو يشترون تليفزيونا ملونا، لكنها تبكى بكل جوارحها وهى تشاهد المسكينة شادية فى أحد أفلام الخمسينات تقول (استر علىّ ربنا يستر عرضك يا سى كمال) .

فى العلبة

تخاف من مجيئه المتكرر، خاصة أن سيارته الحمراء تلفت النظر، حين دخل الأستاذ عليهما ماتت فى جلدها، لكنه لم يرتبك ودخل معه المكتب ورأت الأستاذ يودعه بحماس شديد.

(غمضى عنيكى) فى اليوم التالى يقدم لها علبة قطيفة حمراء، تفتحها وترى بداخلها سلسلة مكتوب عليها اسمها بالإنجليزية، تنتفض، تتلفت، تبكى، وتسأله برحمة والدته أن يأخذها ولا يفعل بها ذلك، الولد ينظر إليها غير مصدق يثبت عينيه على وجهها فتقول (خلاص هاخد العلبة فاضيه وهتكون أجمل)، الولد يخرج، لا يعود ولا يتصل.

تتحسس العلبة، أول هدية فى حياتها، وتنظر إلى التليفون... بارد بلا قلب، المشوار المعتاد أكثر طولا، وسباب النجارين أكثر مدعاة للتقزز.

أيام حتى ترى من بعيد سيارته الحمراء وهو يجلس بداخلها

واثقا منتظرا، على زجاج سيارته يحتبس الطريق وخطوتها المتكسرة.

لا ينزل، يفتح باب سيارته فتدخل بسرعة، تنام رأسها على المقعد كأنما استراحت من مطاردة، تقول ببرود (يا ترى كنت دايما بتطلع الأول؟) .

تغريبة

يعرف طريقه جيدا، يمسك يدها ويعبر بها المدخل الكبير، الوجوه حولها أكثر ابتساما وأقل تعجلا، نجفة هائلة تتدلى من السقف، الألوان بديعة، دوائر غريبة تجتازها ويدها مستسلمة.

أمام المطعم تستقبلها موسيقى هادئة، رائحة معطر الجو ياسمين، الأرض رخوة تحت قدميها، الموكيت يمتص خطواتها، فى الركن، حيث نبات الظل، يجلسان يدغدغها التكييف وتستسلم لخدر لذيذ، ترى البنات طازجات فى زى موحد، شاب أنيق يصب لها الماء المعدنى فى كأس بللورى صغير، تحته منديل ورقى مكتوب عليه اسم الفندق، تشعر بدوار.

ترجع ذلك إلى السندوتش الذى لا يزال ملفوفا فى حقيبتها، تحس بحجابها غريبا فتبحث عن محجبة مثلها، من بعيد جلست واحدة، تكبرها بقليل، لكن ألوان فستانها وتصرفاتها الواثقة لا يمنحانها الراحة التى تنشدها، تنتبه على وجود فتاة جميلة

تتبادل معه كلمات أجنبية، تستدير وتبتسم لها ابتسامة مصطنعة (تحت أمرك)، تشكرها، ويصمم هو أن تطلب شيئا ترفض فيطلب لها أشياء لها وقع غريب بالفرنسية، تنصرف الفتاة ويمسك يدها، هذه المرة تسحبها بسرعة.

- (كنت دايما فاكرك تخينة)

(إنت ما بتحبش الرفيعين؟)

(أبدا، أبدا، لكن جمالك كان مفاجئاً)

يبدو أكثر أناقة من ذى قبل، حتى علبة سجائره الحمراء بدت أنيقة على المنضدة، مشغولة عن حديثه، تمتصها الأضواء الخافتة التى توحى بالمساء رغم ابتعاده، غير بعيد جلست امرأة فى الثلاثين، جميلة، ساقها العارية طويلة بيضاء، تستحى من النظر إليها وبسرعة تتحسس ساقيها كأنها تدارى عريها هى. تتابع بعينيها بنات السادسة عشر! ملابسهن بسيطة وغالية ومشوشة فى تعمد لذيذ، أنوثتهن تفتحت قبل الأوان،شىء غريب أخبرتها أمها أن الفقيرات يخرطهن خراط الصبايا قبل الأغنياء، الفتاة إياها تجىء بالطعام، تسير فى رشاقة رغم الكعب العالى والفستان الضيق، تضع أمامها الطعام أنيقا، ساخنا، غريب

الرائحة. البنت..جائعة، مرتبكة وصداعها يشتد، يلح عليها أن تأكل، تتمتم بالتسمية وتمسك الشوكة فى بطء لتأكل قطع السلطة الصغيرة، تمسك بالملعقة لتأكل الأرز فتلمح الفتاة إياها تتبادل مع أخرى كلاما وتسدد إليها نظرة خبيثة غامضة، يقول لها بنصف ابتسامة إن الأرز يؤكل بالشوكة، يزداد ارتباكها وتلقى بعينيها فى الطبق، تمضغ وتحس بعينيه/ بعيونهم بين شفتيها وتحت أنفاسها، طعم اللحم لذيذ لين، لكن به لذوعة بعض الشىء، يلاحظها ويقول (عاجبك..؟ ده فيليه دى فان، مطبوخ بالنبيت). تزيح الطبق من أمامها وتشعر بتقلص شديد فى معدتها، تقاوم تراخيها وتوقظها المرأة الجميلة وهى تبدل ساقا مكان الأخرى، تبدو ساقاها أكثر وضوحا وتناسقا، فتحس البنت بنفسها عارية .... عارية تماما، وترى المكان مباحا... مباحا، تختنق بالياسمين.

تحمل الفتاة أطباقها شبه كاملة، تتجاسر وتطلب حبة أسبرين، تأتيها على طبق فنجان ثقيل كفراء أبيض دسم تفكر فى طاقمها الصينى، يمسك بيدها فلا تجد قوة على سحبها، يحدثها عن جمالها، لو كان فقط.... ترخى عينيها وتقول مختنقة

وفى صوتها استغاثة إلى سماء بعيدة قاسية إنها تريد الانصراف، يبدو عصبيا وراجيا، لكنها تكرر كلمتها فى عناد، يطلب الحساب، يخرج من جيبه النقود ويتركها بلا اهتمام، الفتاة تسحب لها الكرسى وتحنى رأسها بنفس الابتسامة الراكدة.

تلقى نظرة طويلة.. أخيرة، تترك له يدها ليعود بها إلى الحياة.

أعمال مؤجلة

قرص الشمس والهواء والناس

تتنفس الصعداء، يقول بمرح (تحبى تسوقى إنت؟). لا ترد، فيخبرها أنه يوما ما سيعلمها، فى الطريق يشير دون قصد تقريبا إلى عمارة، (دى شقة المذاكرة، لما تشوفيها هتعجبك)

قبل المكتب يراوغها ويقبل يدها،قبلة باردة لا أثر فيها للحر الذى واجهها بعد انصرافه، تحاول أن تخطو إلى المكتب فلا تستطيع، توقف تاكسيا وتتهالك لتعود.أخيراً.. تصل إلى البيت، تخطو بين زحام الأجساد وتتبعها أمها إلى غرفتها (مالك؟ استنيتك على الغدا)، ترد بأنها أكلت فى المكتب وتلقى بنفسها على السرير، تجلس أمها على حافة الفراش (مش هتسمعى شريط نور؟) ترد (بعدين يا ماما أنا تعبانه، تأخذ أمها بيدها وتقبلها،(يابت بكره تفرج، أحمد هيبقى دكتور قد الدنيا ونور هيرجع بالتاكسى ومش هيخلوا نفسك فى حاجة).

(سيبينى يا امه أنام) حتى المساء،ظلت ممددة على السرير.

فى العتمة.. رغم الظلام كانت بقايا ضوء تنبعث من غرفة أحمد، تعرف أنه يذاكر ويخفى بين كتبه صورة زميلة له، يؤجل مصارحتها حتى تخرجه، وأمها أجلت شراء بوتاجاز جديد حتى تخرجه.

كل شىء مؤجل سوى صوت الماكينة السنجر القديمة الذى يثقب رأسها، وذكريات اليوم التى هاجمتها بشدة وكثير من الخوف،

لكنها تؤجل خوفها قليلا.... حتى الصباح.

خطوات ثقيلة

أخيرا محمود درويش... الأعمال الكاملة.

سنوات بحثت فيها عن هذا الديوان، لم يعرض أبدا فى مدينتى الصغيرة، وقع تحت يدى مرة واحدة فى معرض كتاب بالكلية، لم يكن فى جيبى غير أربعين قرشا وسيجارتين، فكرت فى سرقته بمنطق المثقفين، وتراجعت أيضا بنصف شجاعة المثقفين، واكتفيت بأن دونت فى كشكول محاضراتى: آه يا جرحى المكابر.. وطنى ليس حقيبة.... وأنا لست المسافر.

محمود درويش... بينى وبين ذلك التاريخ عشر سنوات ورأس أصلع وطفلان وزوجة بدينة، كنت أكتب لها حبيبتى شعرها بحيرة ومشطها سحابة، وعندما كانت تجلس بجانبى فى الجينز الضيق كان الدم يصعد إلى رأسى، فأشعل سيجارة وأسرح مع أبيات معينة أخرى لنزار .

محمود درويش، آه يا عاشقا من فلسطين، لا توقفنى أيها السيد فأنا موظف من مصر، يكتفى بشراء الجريدة الرسمية بحثا عن فرصة عمل بالخليج ويبادلها أحيانا بالشعب والوفد.

طلبت من البائع بدافع الفضول فقط إخراج الكتاب من الكيس، لم أستغرق الكثير لكى أكتشف أن النسخة مصورة، قلت للبائع وأنا أرشوه بابتسامة مرتبكة لأعيده.

– خسارة لو من كام سنة كنت اشتريته.

لم تمتد يده إلى وقال وهو ينظر فى عينى

–لو عايز، حاكرمك، عشرين بس عشرين بس عشان خاطرك

ضحكت، فلم أتعود الفصال فى الكتب

– ممنون يا سيدى

– طيب تدفع كام؟

كنت محرجا فسعلت وفكرت بسرعة فى حل هروبى

خمستاشر جنيه.

كده تظلمنى، خليها تمنتاشر.

– يفتح الله

همت بوضع الكتاب، فتلقفته يد لا أدرى من أين جاءت، كانت لولد ذى نظارة، قال(تسمح)، فر الصفحات وهو يسأل بكم

– هذه قلة ذوق بالتأكيد، قلت بسرعة

– خلاص أنا اشتريته

هم البائع أن يقول شيئا فزعقت فيه أتشبث بالكتاب، وأشيحه بعيدا

– إنت بعت وأنا اشتريت

رغم أن الكتاب فى كيسه، طويت الجريدة نصفين ووضعته بداخلها، صفقة رابحة على أية حال، غدا يوم جمعة سوف تقرأ بعد العمل الإضافى وستبتسم حين تحتشد فى رأسك ذكريات الجامعة، أيقظنى من شرودى صوت بائع الموز اقتربت وطلبت منه (٢كيلو)، تحسست جيبى وفكرت لقد فككت لتوك عشرين جنيها، يكفى كيلو واحد، أحمد الصغير يحبه ويسعل منه بشدة،أنت تكفيك واحدة وتدعى لزوجتك أن معدتك ليست على ما يرام، استدركت وقلت للبائع

– كفاية كيلو

رمقنى بغيظ، فأشحت بوجهى بعيدا.

فى طابور العيش وقفت طويلا، رغم الحر والزحام كنت سعيدا.

تقدم شاب للشباك وقال بصوت عال.

- عشر ترغفة ياإبراهيم

تململ البـعض، مـصـمـص آخـرون شـفـاهـهم، لكن حـرارة الديوان المفاجئة فى يدى بعثت الحياة فى حسى المثقف، وقلت وأنا ألوح بمحمود درويش والأهرام

- ده أسلوب همج، لازم تحترم الناس والطابور.

قال وهو يصـدر صـوتا قـمـيئا من أنفـه إن وراءه أكل عيش، تعلقت العيون بى، الرجل الذى أمامى، والذى كـان مطبـقـا على صـدرى منذ لحظة، خطا خطوتين خـارج الطابور، قـال وهو أمـام الشباك

- نقيهم كويس يا...

أخذ العيش ومر أمامى منتصرا، الحر شديد والشمس لاسعة والرجل عاد للالتصـاق بصـدرى،لم أتمالك نفسى، صـرخت وأنا أمـسك به بيـد واحـدة، وفى الأخـرى مـحـمـود درويش والأهرام وكيس الموز.

- انت مش حتمشى بالعيش ده.

قبض ملابسى فى يده الغليظة، بسرعة ومهارة أخرج مطواة، بسرعة سددها فى وجهى، أحسست بلسعة حارقة بجوار أذنى،

صرخت امرأة ولم يتدخل أولاد الحلال، بوغت بالألم فأمسكت به في حنق، سدد ركلة إلى بطني كدت ألفظ بعدها أحشائي. سقطت.. وسقط كل شيء على الأرض الساخنة، مددت يدي بإعياء وتعلقت ببنطلونه، سحب قدمه بسرعة وقال:

– اللي حيقرب مني هأجيب كرشه... ما تسيبونا لأكل عيشنا

من أسفل كان يبدو هائلا، عملاقا، كل أزرار قميصه مفتوحة وصدره القوي يلمع بالعرق، المطواة تلمع بخيط دم رفيع، ألم حارق في وجهي، الرجل الذي أمامي جمع لي أشيائي وتطوع بنفَض التراب عن بنطلوني، كنت أغلي مقهورا، دموع نارية تتحجر في عيني وأنا أراه ينصرف، قال الرجل هامسا:

– خلاص يا أستاذ اخزي الشيطان، ده ولد صايع روح لعيالك.

قال آخر وهو يمنحني خبزه:

– والله ما أنت كاسفني عشان تروح تغسل وشك.

تذكرت أنها الثالثة، أ مامي ساعة واحدة حتى موعد العمل الإضافي، تقبلته بصمت وتركت المنديل على وجهي، كنت أستبقيه للعيش وضعت العيش فوق الأهرام وكان بخاره اللافح

يصل إلى الأوراق ويدى،أمـــضغ ســـخطى ولا أريد أن أبكى. أمضى... أمضى

أمـام فـتـرينة أحد الأكوزيونات اسـتسلمت، وأدرت ظهرى للعـالم، أردت أن أبكى لكنى ثبت عـينى على أسـعار الملابس، كانت معقولة بعض الشىء، منذ أيام وسهير تطلب منى فستانا جديدا لحضور فرح أختها، فى خناقة الصباح قالت إن الأسعار فى جانب آخر من المدينة معقولة، قلت إنها لا تعمل وإننى أولى بحذاء جديد أذهب به للعمل، وإننى امتنعت عن التدخين لشراء اللبن لأولادها.

تذكرت أنه على بعد خطوات يوجد محل (ألف صنف)، حيث أدارى وجه هانى فى صدرى ونحن نمر أمامه كى لا أشترى له سلاحف النتجا أو دبدوباً.

آه.. محمود درويش، «والله لا يأتى إلى الفقراء إذ يأتى»، لا إله إلا الله، هل كانت تنقصك الشجاعة منذ عشر سنوات ولماذا واتتك الآن؟

لو سألتك سهير ستقول لها قصدك زميل فى سلفة، لكن كيف

تدخل به المنزل؟ القميص لن يداريه، ستراه بالتأكيد ولن تتكلم، ستقف وحدها فى المطبخ الضيق وتبكى، تواجهك بعينين متعبتين وتدعى أخيرا أن زيت قلى البطاطس قد لسعها، لن تسألك وبالطبع لن يسأل الأولاد، بالتأكيد ستدير وجوههم أمام سلاحف النتجا وأحذية النتجا، لكن هانى سيبكى فى صدرك وأنت تخبره أن الشيكولاته والشيبسى وهاف تايم كلها فى البيت، وفى البيت لن ينسى الملعون كلمة مما قلت،سيبكى (بتضحك على يا بابا) ويهرب إلى حضن أمه.

آه أنت مرهق ومصدوع، لن أذهب إلى العمل اليوم ولن أقرأ للدرويش .

ثمانية عشر جنيها، ماذا لو تركته للولد المثقف؟ ربما كان أفضل حظا منك فى النشر، على الأقل لا تنقصه الشجاعة. محمود درويش، اللعنة إن الأمر كله خدعة، عاشق فلسطين!

كنت أستجمع بعضى، أثبت نظراتى بقوة على الألوان الصارخة المستحيلة والمستفزة لأحجر هذه الدمعة المعاندة، أرفع المنديل عن وجهى، أبتلع ريقى الجاف وأتنفس بعمق.

أبتعد عن الظل الثقيل إلى الحر، أستدير للشارع والناس وأواجههم، سأعود، هل سيقبل البائع استرداده؟ ملعون أبوه أنا قتيله، سأجعله يقبل.

مازالت أمامك نصف ساعة... لا يهم الغداء، القضية ستطول بالتأكيد والطريق طويل، لكنك حتما ستمشيه...

ثمرة برتقال صغيرة

عندما دخلت الغرفة تطلعت العيون إلى، توجهت إلى سريره، مددت يدى قائلا سلامتك، فى نصف غيبوبته لم يعرفنى، أفسحوا لى، سألونى عن الأحوال، وقالوا إن الحاج قد أجرى العملية منذ ساعتين.

كان مستندا – وقد أغمض عينيه - على كتف عم يوسف، الملاءة غير نظيفة وعلى جلبابه الأبيض بقع دم جافة.

قال عم يوسف إن أبى قد أخبرهم فقط بموعد العملية، وأخفى على الحاجة كى لا تقلق (إحنا حتى جينا من البلد غصب عنه).

هذا الصباح زارنى فى العمل، لاحظت نحوله الشديد، وهو يشرب قهوته لاحظت أيضا ارتعاشة خفيفة فى يده الموشومة بصورة (أبى زيد)، سألنى بلهجة عادية إن كنت مشغولا فى المساء، سألته (خيرا)، أجاب بأنه قد جاء لزيارة الطبيب وأنه قد...قد يجرى جراحة.

رشف رشفة طويلة من قهوته وقال إن الموعد قد يتحدد فى الأسبوع القادم، بعدها سكت وراح يداعب مسبحته ويتأمل مكتبى، سألنى فجأة إن كانت الغرفة تخصنى وحدى ولما قلت نعم، رجع بظهره إلى الوراء، مطمئنا، عاد يرتشف قهوته.

كنت أريد أن أسأله لم جاء، لكن السؤال بدا لى سخيفا، سألنى متى سيفرحون بابن لى، قلت لما ربنا يريد، جمع مسبحته فى قبضته وانتصب واقفا، رجوته بارتباك وتردد أن يبقى للغداء، وأن زوجتى ستفرح بزيارته، اعتذر بأن أمى هى الأخرى تنتظره ولن تأكل وحدها .

عندما مددت له يدى، استبقاها قليلا، اتسعت حدقتاه بينما كان جفناى يرتعشان.

فى السادسة كان عم يوسف يخبرنى أن أبى قد أجرى العملية، فى هدوء أعدت لى زوجتى حقيبة صغيرة، قالت إننى سأحتاجها، وطلبت منى أن أوصلها إلى بيت أبيها لتبيت هناك.

فى الطريق لم نتكلم، قبل أن تغادر السيارة طلبت منى أن أتصل بها لأطمئنها وأنا أتحرك كانت صورتها فى المرآة لا تزال واقفة أمام باب المنزل.

فى الحجرة رائحة مطهر قوى، الكراسى قليلة متناثرة، على سرير آخر فلاح محروق البشرة يمسك بجنبه، بجواره شاب فى العشرين بجلباب نظيف، قدم لى طبق برتقال رفضته شاكرا، خلف السرير وبامتداد الحائط، نافذة طويلة من الألوميتال، رسم عليها صورة لطاووسين، حين أزاح الزجاج أصبحا جسدا واحدا لطاووس ذى رأسين، كان قرص الشمس البرتقالى يوشك على المغيب، اللون البنفسجى والأحمر يتداخلان.

انتبهت على سعال الفلاح المريض، نصحه ابنه والجالسون أن يمسك بجنبه ويسعل، تقطيبة حاجبيه وطريقة جلسته توحيان بالشرود والألم، كان صموتا جدا، ساقاه المكشوفتان محمرتان، لا معتان، وحول عينيه خطوط رفيعة من أثر الشمس، قالوا إنه أجرى عملية الفتاق، عندما تأوه واساه عم يوسف قائلا:

(شد حيلك المرض ينزل الجسم زى الجمل ويخرج من خرم إبره)

حين بدأ يسترد وعيه قال وعيناه لاتزالان مغلقتين (لو وراك حاجة قوم انت)، تجرعت كلماته وسمعت عم يوسف يقول: (مش

كفاية جماعتك مش معاك، عايز تفضل بطولك)، دخلت ممرضة تسبقها كلمات مكشوفة، سألها أبى أن يذهب إلى الحمام، رفضت وقالت إنها سوف تستدعى الطبيب.

من النافذة كنت أرقب الألوان تتلاشى فى أنفاس الظلام،

قبل أن ينصرف الزائرون مدوا أيديهم له بنقود، لا حظ امتعاضى، فقال بعد انصرافهم (مستورة لكن إنت عارف سلو بلدنا)، استند بظهره على السرير وقال (قشر لك برتقالة)، أضاف بصوته الواهن (أنا بقيت كويس، روح أنت لمراتك)، قبل أن أرد دخل الطبيب فى جلبة مرحة، فى الخامسة والثلاثين، تتدلى سيجارة من جانب فمه، سلم على أبى بقوة وقال إن الحاج (عال العال)، لكن أبى اشتكى أنه يريد الذهاب إلى الحمام، رد عليه وهو ينظر لى: (لا أنت بيتهيألك) مد يده ليسلم على فقال أبى بفخر: (ابنى الباشمهندس)

تبادلت معه ابتسامة باردة، بعدها لفت أبى نظرى أنه من بلدنا وقال الطبيب منصرفا إنه سيمر عليه فى الصباح، كان أبى سعيدا به وبمرحه.

أعرف أنه يحب الأطباء، طول عمره يتمنانى طبيبا، أثناء

امتحانات القبول كان يوصلنى إلى اللجنة، ويوصينى ألا أهاب الامتحان، وأن أجلس مثل أبى زيد فارس الفرسان.

هو.... بجلبابه الوحيد ومنذ بدايات الصباح، قد صر منديله وعلقه فى ذراعه وحمل قلة صغيرة، غطاها بطرطور أحمر بلاستيك ووقف ينتظرنى على البوابة، من اللجنة،،كنت أراه دائما بين حشد صغير يريح وجهه على قضبان البوابة الحديدية، يرفع يدا ضارعة متمسحة كأنه على ضريح سيدى شاور، عيناه تحطان على كتفى وكأننى أخوض أهوال بنى هلال وأصارع الزناتى، حين يشتد التصاقهم ودفعهم للبوابة، كان العسكرى يضربهم فترتعش ابتسامته مثلهم ولا يتحرك، يتشبث معهم بالقضبان.

عندما يدق الجرس ونخرج من اللجان يطير إلى، يمسك ورقة الامتحان، رغم أنه لا يعرف القراءة وينظر فيها نظرة غامضة، ويسألنى

– (بيقولوا الورقة الأولى صعبة قوى؟) ، وحين يطمئن يجلسنى معه فى الظل بجوار الحائط، من منديله يخرج (شقتين عيش قمح وقطعة حلاوة، ويقول مادا يده القوية وفرس أبى زيد

– (كل لك لقمة تقويك) وأرفض، أرفضه تماما، وحين يمر علينا أحد الملاحظين يدعوه للشرب من (قلة المورد) ويقول له:

– (والنبى يا بيه بلاش تفزعوهم) فأرخى جفنى إلى الأرض وأتوسل إليه ألا يتعب نفسه، لكنه لم يتخلف يوما عن الامتحان حتى رحلت من البلد.

الساعة تجاوزت الثانية عشر، انتهت الزيارات وأغلقت الممرضة الباب، وحدى فى الظلام على الكرسى قال:

(حتتعب من قعدتك على الكرسى، تعال جنبى... واسعة) أزاح جسده قليلا.

قلت : مرتاح.

عرض ابن الفلاح الصموت أن أشاركه سريره، أو أعود لبيتى وأن يرعى الحاج لو احتاج شيئا، من جديد شكرته بملل.

كان الظلام سائدا تماما... وكنت أرى النجوم وحيدة متباعدة، الصمت والظلام لا يقطعهما سوى تأوهات المرضى من الغرف المجاورة، صوت أمهات عجائز مجدول بالشفقة والألم

يؤنس المعلولين، أحسست برغبة فى التدخين، فخرجت إلى الصالة حيث الضوء الخافت.

من الترمس رحت أحتسى الشاى غير الطازج، من غرفة أخرى مواجهة خرجت بنت صغيرة، أطلت برأسها أولا وظل جسدها الصغير فى الغرفة، على خدها ثمرة برتقال صغيرة، ابتسمت وناديت عليها، سألتها عن اسمها فأجابتنى(هبه)، أشارت إلى البرتقالة التى لا تزال على خدها، أنها من شجرتهم، وأنها تحب شجر البرتقال، كنت أمسك بيدها عندما أشاحت بوجهها وقالت : (لكنها راحت)، أخبرتنى أنهم قد بنوا لأخيها مرتضى بعد عودته من العراق ليتزوج.

كانت فى ملامحها براءة السابعة وحزن السابعة،سألت وأنا أحاول أن أجد مبرراً لحب البرتقال أو شجرته.

عم تحبه فى شجرة البرتقال، زهرها الأبيض أم رائحتها.

مررت أصابعها على الورقات وابتسمت، من الحجرة خرجت أمها معتذرة، قامت البنت معها، غمزت لها بعينى فلوحت لى بيدها الممسكة بالبرتقالة.

كنت فى مثل سنها تقريبا، بعد استشهاد أخى بقليل، حين

ذهب أبى بطلب لنائب دائرتنا ليعين غفيرا فى الشونة، وسافرنا لسعادة البك فى المصيف، تركنى بالخارج ودخل لمقابلته، جرتنى أقدامى إلى الشاطئ والشمسيات الكبيرة الملونة، وحين رأيت البحر الكبير قفز شىء حبيس فى صدرى وطارت عيناى تعبران اللون الأزرق، رغوة الموج البيضاء تفور وتهدر فتزداد رفرفتى.

لم يكن أبدا مثل ترعتنا، ولم يكن الأولاد يشبهوننا، كانوا ينزلون البحر، أولاداً وبناتا، بلا خوف بمايوهاتهم الملونة، حتى فرحتهم لم تكن مثلنا.

خلعت حذائى ورفعت بنطلونى الطويل، مسست الماء بفرح، كانت أطراف الموج تحيطنى كدائرة، حين أهرب تطاردنى وتمحو آثار أقدامى على الرمل المبتل، استلبتنى اللعبة وهدير الموج ورائحة البحر والزحام .

عاد أبى ملهوفا وقال إنه داخ من اللف والدوران بحثا عنى، رغم أننى لم أبتعد كثيرا، وقال لى مبسوطا إنه سيعمل فى الشونة قريبا،اشترى لى (جرانيتة) ،ضحك منا البائع وجاء مصور يقول (صورة يا عمدة،،صورة يا عمدة)، أعرف أنه قد نظر لى ورأى عينى وأنا ألعق (جرانيتة) والبحر والألوان فأمسك

بيدى جيدا، كانت يدى الصغيرة تختنق فى يده الخشنة القوية وقال

(مد قدامى يا محمد)

وسار فى غير اتجاه البحر يجرجرنى.

البحر والألوان يبتعدان، الصوت يتلاشى، الرائحة تضيع والمصور الحافى يقفز فوق الرمل الساخن (على فين يا عمدة.. حد يسيب البحر؟) وأمام حديقة صغيرة للوكاندة كانت شجرة برتقال فتوقف، سوى جلبابه، استند على الشجرة وطلب منى أن أبتسم،فى حين وقف أولاد وبنات يضحكون على (العمدة)، الجرانيتة سقطت وعيناى تتمرغان معها فى الرمل الساخن.

تقلب فى فراشه،لأول مرة طلب منى سيجارة.

(نفس واحد يمكن أنام)

جذب أنفاسا قليلة وأعادها لى، قال يا رب ممطوطة متألمة، فى الظلام كنت أسمعه يقرأ القرآن، قمت أبحث عن الممرضة التى اتصلت بالطبيب، تذكرت صفاء، فكرت أن أتصل بها،(كان يمكنها المجىء على الأقل للحظات لو أرادت الاطمئنان حقا)، لماذا لم تحبها يا أبى ؟ كيف لم تحبها أمى وهى التى حكت لى

عن ست الحسن وبنت السلطان والأميرة شما، تركتنى أطارد عينين زئبقيتين واسعتين تفيضان بالسحر العسلى وهى تمد يدها بكشكول المحاضرات، وتقول إنها لن تخجل أن تقول (بحبك)، مادمت سأظل متلعثما أنظر إلى حذائها، آه الإسكندرية ، المسرح الرومانى والفستان الخفيف الزرقة، المكشوف الكتفين (أحبك)، احتشاد الصدر اللين معجزة.. مكتملة ونائمة ومنتظرة تحت البحر والسماء، (أحبك) عنقها الحليبى يطوقه شريط أسود، فى منتصفه يسطع فص متلألئ تنادينى..

شعرها عاصفة شقراء، على أطرافه كان قلبى مرفرفا كيمامة خلفنا كان ركض السحاب الأبيض و صفاء فى السماء القريبة الدانية.

فى المساء ، على الصخر البارد كان امتداد البحر والسماء وقبلاتنا المسروقة، روحى فى أنفاسها تدخل المدينة المسحورة، وتخبرنى أنها حدثت أباها وأنه يريد أن يتعرف بى.

قبل أن تفترق يدانا كانت تقتسم معى الشهادة (لا إله إلا الله) نصف دائرة فضية، أخفيه جيدا بين قميصى وصدرى،

وصفاء فى صلاتى وشرودى وصمتى.

لكن سيف أبى زيد من خشب وحصانه موغل فى القدم، مسجون فوق أيدى الشيوخ وقد تآكل لونه الأخضر.

رفع الجلباب عن ساق أبى ليجرى له القسطرة ، رفض أبى فى البداية لكنه استسلم أخيرا ، أغمضت عينى وكنت أسمع صرخاته وأخجل من ألمه وأرغب فى العودة إلى المنزل

أعرف ملامحه المتألمة، أعرفها جيدا ، كان يجلس مع أمى صامتا فى الفرح، عيونهما تتصمغ على، جفناى يتكسران وهو يقول مخنوقا (مبروك)، أمى تقبل رأسى دامعة، يدها تتعثر فى طرحتها السوداء وهى تبارك لصفاء، تذكرة الطائرة تئز فى جيبى، وصفاء تهمس لى أن أباها قد قدم لها هذا السوليتير هدية الزواج، أبوها الذى قال وهو يضع ساقا على ساق إنه يعمل فى الكويت منذ ستة عشر عاما ويشترى رجلا، ولن يطالب بالشيكات لأنها ابنته الوحيدة،.

– (عدة سنوات فقط فى الكويت وتعودان).

خمس سنوات فقط يا حاج، نذرت فيها كل الأوراق الخضراء التى أرسلتها لك للأطباء والتحاليل والأدوية، أشعلت رأسك

بالشيب وجلست على المصطبة وحيدا... ناحلا ، تحت شجرة التمر حنة الجافة تستنبىء مسبحتك، وتصدق لأول مرة أن (دياب) ذبح السلطان حسن، وأن سنبلة قمح خدعت أبا زيد، كيف يغدر به دياب، و دياب بن غانم من الهلالية وخرج مع بنى هلال إلى تونس الخضراء؟!

تتم كشيخك سبعين ألف تسبيحة، ثم تبدأها من جديد، ولا تصدق أنك أورثتنى مقلتيك الحزينتين ولم تورثنى حب الهلالية وشجرة التمر حنة.

الحقيبة مغلقة كما هى بجوار الحائط ، رأسى على فخذ أمى يلمس عظاما واهنة وعيناها معلقتان بمئذنة سيدى شاور، تغص وهى تقول إن المغرب قد أذن ولا داعى أن أقود وحدى فى الظلام، أطمئنها أن المسافة تستغرق نصف ساعة فقط إلى مدينتى.

فتقول (صحيح، نص ساعة يا نضرى)

على الحائط صورتى باهتة، بنفس الحجم ونفس البرواز تماما، بجانب صورة أخى الميت ولم أحدد اتجاه نظرتها كان لأينا لحظتها.

بعد انصراف الطبيب طلبت من الممرضة أن تغير فراشه، أخرجت له من الحقيبة جلباباً نظيفاً فرفضه، وقال إنه ذاهب إلى الحمام، مددت يدى فقال إنه بخير، ساعدته الممرضة ودخل الحمام، عندما خرج كانت على وجهه حبات عرق وشحوب غريب، نقطة حمراء طازجة تسيل فى خيط رفيع أسفل جلبابه، كان يردد الحمد لله لاهثة متتالية، من الغرفة الأخرى جاءت أم الصغيرة ومعها كوب ليمونادة ، قالت بخجل وعطف.

(بالهنا والشفا يابا الحاج)

شكرها أبى وهو يقول هامسا:

(ناس طيبين).

كرر على أن أعود لزوجتى، انفجرت فى صوت عال (أنا ابنك!!.. عايزنى اسيبك لوحدك مع الأغراب)

أيقظت كلماتى الرجل النائم وابنه، نظرا ناحيتى وظل أبى ساكنا، أردت أن أعتذر لكننى لم أجد ما أقول، أضاء الشاب النور، كان شحوبه مريعا، والدماء على الفراش قانية وأكثر

غزارة، قال الشاب إنه سيدفئ بعض الماء والملح، وعاوناه مرة أخرى على دخول الحمام.

بعد قليل خرج، لم تسعفه قدماه فسقط وحملناه إلى السرير، بكلمات زاحفة قال لى:

(الدكتور قال لى ما أقلقش)

غطى وجهه بذراعه وبعد لحظات قال الشاب : (خلاص نام)، وسألنى هل أحتاج شيئا، حين أجبت بالنفى أطفأ النور.

عاد الصمت والظلام، مع نسمة الفجر كانت عيناى تثقلان، رأيتنى فى بلدتنا ليلة معرفتنا باستشهاد أخى، أحتضن أبى عند مقام سيدى شاور، يده تمسح رأسى والأخرى تتعلق بالضريح وهو يتمتم (الحمد لله، لازم تبقى دكتور قد الدنيا يا محمد) ويبكى.

رغم هذا لم يقل عن صالح أبدا (المرحوم)، يسعى للحصول على وظيفة، يضحك وهو يرى أمى تفرق شعرها المصبوغ بالحناء ويقول إنه سيتزوج ببنت بنوت جميلة مثل الأميرة شما،

أمى تجهز رقية الجمعة، تكنس عتبة الدار وتغنى

خبط الهوى ع الباب قلت الحبيب جانى

أتاريك يا باب كداب تتهـــز بالعـانـى

أبى يعود من الصلاة، يقرأ دلائل الخيرات والفاتحة للأقطاب الأربعة، ينهى حزبه الكبير ويقرأ من شعر الطريقة (من له فى الرجال شيخ كشيخى)، يدور بالشاى على المصطبة ويطرب لكتاب الأيام وخضرا الشريفة، ولا يخاف على أبى زيد من الزناتى، عيناه تقتطعان كل يوم مساحة أكبر من السماء لترفرفا فيها وتلمعا بالفرح وهو يرى الغلة، يحملنى على كتفه لأرى قراريطنا الصغيرة، ويذكرنى أن القمح والسماء وأمنا أوفياء.

كلما طالت قامتى تدب خطوته واثقة، متسعة إلى سيدى شاور.

استيقظت على صوت الآذان وتسابيح الفجر، كان وجهه مطمئنا، تركت الكرسى وجلست بجانبه على السرير، فى الظلام كان بكائى عنيفا ومكتوما.

مع إشراقات الصباح رأيت من خلال جفنى المبتلين البنت الصغيرة تبتسم والبرتقالة ملساء على خدها الطازج، وأنا أحاول أن أبتسم.

لكن ثمرة البرتقال سقطت كل أوراقها الخضراء.

المستور

الحـــادث

صـوت القطار، رائحـة الفاكـهة، لغط الخـارجين من المحطة، الخطوات المحسوبة، تنبئ باقتراب الشـارع، يسـتقبله ضـجيج بعيد، لم يكن يستقبله من قبل سوى مواء قطط الصيف الكثيرة الممتلئة البطون، اقترب أكثر فجاء الصراخ (أهو جوزها أهه) قبل أن يسـتعيذ بالله كانوا من أمـامـه ومن خلفـه، عن يمـينه وشمـاله، يتدافعون فى كتفيـه، يخترقون جلبابه، يتوغلون تحت جلده، صـراخ أجوف مشـروخ (أنا دخلت الشـقة غلط وشـفتـها جريت)، عرفـه من صـوته وسقط قلبه لهذه الرائحة كانت أولى انقباضات القلب.

هوت المرأة على صـدره، تلطم خـديدها، يصـرخ صـوتهـا المترجرج (مظلومة يا فكرى ما تصدقهمش) .

أقدامـهم الغليظة تفرم أصابعه، أصابعـهم تنغرس فى كتفيه، كلمـاتهم شـواكيش فى رأسـه، لا تحـمله قدمـاه ولا يسـتطيع أن يسقط .

هذا المساء

بعد السهرة عاد وحده يدق العصا على الإسفلت، كان يشعر بانقباضة، يرتجف لهذه الانقباضة ويشعر أنه يسير فى الرمل - كان فى السادسة حين تاه من أمه.. يذكر أنه مشى لساعات فى رمل لا ينته، كان دائما لايفارق كتفها.. فى السوق، حين تزور شيخا أو تنذر نذرا لولى، تنهج فيعرف طول المسافة من وجهها الذى يسح عرقا، فى الرمل كان يبحث عن رائحتها وعرقها وسخونة جسدها ولايجدها، حين تلقفته أخيرا فى حضنها اللاهث بكت ولأنه أعمى دموعه لا تصل إلى عينيه فقد عرف انقباضة القلب، استبقاها واحتفظ بها.

فى مشيته المائلة كان عرقه بنز تحت الصديرى، أصابعه العرقى تنزلق حين يطرقعها، الرائحة الثقيلة تسبقه، يستعيذ بالله، يمد أنفه ليستشعر نسمة فلا يجد، يستدعى رائحة أخرى، رائحة البيت والطبيخ ورطوبة البلاط الممسوح، رائحة امرأة تخلع

عنه عباءته، تناوله الجلباب، تنصرف لتعد له كوب الشاى، وتترك له (إبراهيم) الذى يتعلق بكتفه، فيمنحه قطعة سكر نبات، يسمع صوت الأسنان الصغيرة تقرقشها، يحتضن إبراهيم، ترفسه قدم الولد الصغيرة، وتمتد يده العابثة إلى نظارته تخلعها ويسمع صوت ارتطامها بعيدا، ينادى على زوجته، فتعيدها له، تنهر إبراهيم وتكاد تضربه، فيخفيه منها فى صدره حتى ينام، يستمتع دائما بعذوبة دقات قلبه وتنفسه الرائق، ولما يمد يده يتحسس ابتسامة يلعقها لعاب إبراهيم الجميل الطاهر.

المساء خيمته الأبدية وظلامه الممتد يثقبه دائما أصبع إبراهيم، ينادى (سمى يا صابحة وخديه على السرير).

عنهم

الآن كانوا جميعا حوله، الآن فقط، جاملهم فى أفراحهم ومآتمهم فلم يزيدوا عن (حصلت لنا البركة)، ليس بالشارع مقهى ليجمعه بهم، وهو عزيز النفس لم يتسول معرفتهم، لكنهم تركوا أولادهم يفسدون عليه تعسيلة العصارى، لم ينهروهم يوما عن لعب الكرة عند مروره، ذات مـرَة اصطدم به عفريت منهم فأوقعه، ولما قام ولكز بالعصا من طالت يداه، خرجت أم الولد ولعنت سلسفيل الشيخ.

أمر خادمته العجوز أم الخير أن تخطف له كل كرة يلعب بها الملاعين أمام بيته، عاندوه وظل خبط الكرة فى شباك غرفة نومه فوق رأسه تماما .

هم.. لم يطرقوا بابه فى رمضان بكوب خشاف، لم يتذكروه فى عيدهم بطبق كعك، حتى بعد رفده من الأوقاف بعد خطبة عن حديث المبادرة وموالاة اليهود من دون المؤمنين، تركوه يتسول

القراءة فى مـأتم وتحفى قدماه على المساجد الأهلية، بل حتى الذهاب إلى المقـابر لجـمع قـروش القليلة وقـرص الرحـمـة، لم يدفعوا أولادهم للمسجد لحفظ كتاب الله، حتى من حفظ منهم جـزءا أو اثنين وطفش كبـر وسافـر وعـاد من الخليج، وليس فى يده نظارة للشيخ أو لعبة لإبراهيم، أو حتى مجرد (سبحة) من عند سيدنا النبى، تقدموا عليه فى الإمامة لأنه غير ملتح، هو أستاذ القراءات بالمعهد الدينى، يؤمه ولد لا يعرف حفصا من ورش، لا يهمس تاء أو بقلقل باء، تركوه ينقر بعصاه وحده، لا يكاد يقول باستحياء ليد مترددة (عشت) حتى تنصرف عنه.

صابحة

صوت مستح، ممزوج برقة وعذوبة السادسة عشر، معجون بانكسار يتيمة، حتى الأعمى مثله، يرى كم هى جميلة وصغيرة وفائرة. (وش السعد)، التى أتى بها من البلد فكسب قضية الأوقاف، وعاد إلى المعهد الدينى وإلى خطبة الجمعة.

صابحة... يراها ويحسها ويشمها، البيت لا تزكمه رائحة التراب، البيت يسرق وحشته صوت المنفضة ونهجان أنثى تسكب الماء على الأرض، وحين تمسح الحمام تضيف قطرات الفنيك، ملمس الملاءات ناعم طرى، تأخذ بأصابعه لتعلمه اكتشاف تفاصيل الدولاب المرتب والهدوم الناعمة التى تفوح برائحة الصابون، صار المنور نظيفا، وحتى مدخل البيت تخلص من رائحة براز القطط التى كانت تغافله وتلد فى بئر السلم.

الليل مدهون بالسكينة، لقمة هنيئة ساخنة، الشاى أبو نعناع ونسمة رائقة من الشباك، وصابحة بجانبه تقزقز معه لب

البطيخة، تضحك فترتعش فروة رأسه (وطى صوتك ودارى لحمك... أوعى تستعمينى يا بت)، تدعى الغضب : (هو أنا أقدر يا شيخ.. طيب حسس كده).

الليل مدهون بالشوق ورائحة ليمون تفوح من صينية القلل.

تحمل بإبراهيم فيشترى لها غسالة وتليفزيوناً، يذهب بها إلى رأس البر، صارت عيناها عينيه، الرمل ناعم تحت قدميه، يجفل حين يمسه الماء لكن يدها فى يده.. تصالح والمساء ولم يعد يطرد قطط الصيف .

الرائحة

أم محمد تؤجر الشقة المقابلة للطلبة، جدعان سمجون يتخبطون فيه فى بئر السلم، بالذات هذا الجدع ذو الكولونيا الذى فاجئه بالزيارة (ماذا يفعل من نذر صياما ويريد إخراج مال لأنه لا يطيق الصيام؟). عودة انقباضات القلب لهذا الصوت القوى الشارد عن متابعة فتواه ، يفشل فى تحديد اتجاه الصوت فيوقن أن الجدع يدير رقبته هنا وهناك، تتلكأ خطوات الجدع الطويل نحو الباب، يودعه بيد لها قوة الأشكيف، تزكمه رائحة الجدع الثقيلة، فيجزع ويتشمم صابحة فلا يحسها، لكن يسمع صوت قزقزة اللب.

كانت بقميص النوم وعلى صدرها إبراهيم، أقسمت أنها لم تر الضيف، ضربها وقال إن الفاجرة تستعميه، (يا راجل يا ناقص.. دى كلمة تقولها ، دى جوهرة مش كفاية مستحملاك بقرفك)، هكذا قالت الولية أم محمد قبل أن تنصرف، أسبوعان

لم تكلمه صابحة، لم تعد تخلع عنه الحذاء، لم تعد تقطع له اللحم قطعا صغيرة فوق الأرز، امتنعت الملعقة أن تمتد له بالشوربة، حتى فى ساعات الشوق تدير ظهرها له وتقول (عيانه)، ترك لها فلوسا لتشترى ماتريد، عاد معه بدستة جاتوه وأغلى زجاجة ريحة، فى الليل يسمع أنفاسها متيقظة تبكى على المخدة.

الليل مدهون بالشوق ....

(خلاص بقى حقك علىّ)، أجهشت بالبكاء، ربت على ظهرها، استدارت فأخذها فى أحضانه، تضم وجهه على صدرها البارد، كافورة أيام الحر، فيتفتح قلبه على يدها، آه من نعومة الورد، ارتعاش الموج، صنوف السحر، صابحة ترتجف تحته ندية كالعشب، ريانة، تروى شقوق جسد الخمسين.

... لكن الخوف ينبت تحت جلده، أكان لابد أن يسمع رفيف الملابس عند الباب، وانفلات مخطوف (مين يا صابحة)، ترد بصوت محبوس وروح مسروقة (فتحت الباب أخرج القطة)، تعود وصدرها يتهدج بإبراهيم، جسمها ساخن كجهنم وتلك الرائحة، منعها الخروج، أغلق الشباك، قبع أياما فى المنزل. الباب يدق ولا أحد.

يمد رأسه يتشمم رائحة بعينها يبحث عنها، الخوف عقرب يتسلل إلى القلب ويثقب الروح، يتسمر مصلوبا على الباب، (مالك يا فكرى؟)، للمسها فى المساء شىء عزيز مفتقد، والصلح مشروخ، طال البقاء والصمت، لكن للوظيفة أحكام.

يخرج والرائحة تسبقه دائما، تدق على عصاه فيتوه فى الرمل، يعود يتشمم الفراش والأركان، يتحسس هواء الشقة لعله يمسك بها.

الرائحة لا تفارق أنفك فهل دخلت يوما ولم تشمها يا فكرى؟، فى الليل يتحسس بأصابعه عنقها، هل تتسل منك فى سواد الليل؟ اقتلها... اقتلها يافكرى وألق بقلبك فى الرمل، لكن رفسة إبراهيم توقظها.

صار يحتضن إبراهيم وينكمش فى براح الرئحة، الرائحة تنبت على الجدران، تزحف على بلاط الشقة، إبراهيم لك وهى لإبراهيم لكن الرائحة لمن؟

يؤكد لنفسه أنه أعمى.

يدفعونه، فيصعد السلم، متعثرا فى عباءته، فيهم، الباب مفتوح لكنهم يسدونه، يتعثر، تغير مكان الكرسى التى حفظتها أصابعه، (البوليس اتأخر ليه لازم محضر وإثبات حالة)، يشم التراب فى يدها العرقانة، مكشوفة الذراعين، عيونهم المبصرة تتحسس جسدها وفضيحتها، أقعدوه على الكنبة، يميز صوت الولية أم محمد(كانت مجيتك نحس)، لا يجد هواء (شوية ميه بسكر الراجل لونه أزرق زى النيلة)، صابحة عند قدميه آه لو يجد قوة ليقتلها، هل قابلته هنا عند الباب ؟ هل أمسكت بيده واستبقتها فى دفء بطنها وفخذيها؟، على الفراش، أم هنا على الكنبة؟ ،هل كان إبراهيم نائما أم رأى كل شىء، (ربنا يكون فى عونك... اجمد) يا أخى اسكت ، اسكت.

هل انسدل شعرها على يديه ومنحته تلك الضحكة الخصوصية وهو يقبلها فى رقبتها؟، كانت لقبلتها زقزقة

العصافير، لسنتيها لدغة مسكرة، وهى تسحب شفتها السفلى بهدوء وتنفجر أنفاسها عبيرا مباغتا فى كل وجهه اقتلها يا فكرى وتخلص من لفح جهنم الذى يستعر فى رأسك، لماذا شلت يده الآن؟، صابحة على الأرض يبلل ركبته لعابها ودموعها وخطيئتهاوهو ضعيف ضعيف، سنواته الخمسون فوق ظهره، يستنشق زفيرهم وفضيحته، (الأعمى لن يسكت، سيمزقها ويلقى بها لكلاب السكك، البوليس وصل.. اتفضل يا حضرة الظابط)

هـــدأة

(انت جوزها؟) يردون عنه (أيوه) .. (حصل إيه؟)، الرائحة تميزها الآن جيدا، سخونة الكلمة توخزك (مظلوم يا بيه)، الصوت صوته دون كل رجال الأرض، تخفض جبهتك ذلا، يتعلق إبراهيم برقبتك باكيا، رأسه الصغير يتمرغ فى كتفك، إبراهيم عكازك وآخر أفراح الدنيا.. هل يسرقون ملح أيامك، هل يسرقونه؟، لماذا لا تشعر الآن بهم ؟، الآن صرت جارهم؟ عرضك عرضهم فقامت قيامتهم، هم حين يتخانق رجل مع امرأته ينكشف المستور عن زوج مربوط وامرأة فاجرة وبتوع العيال وبنات الشقق المفروشة. يسدون أذنيك بالشمع عن ضحكة إبراهيم وصوت يسألك (مالك؟)، يسلمونك لخواء حوائط أربعة، لعنكبوت لا يستح أن يعشش فى دولابك، أو صرصار يموت

خطأ تحت شبشبك، سيعود كل واحد إلى امرأته وينفض المولد، لن يتصدقوا عليك بطرقة باب، لن يسألوا هل يطلع عليك الصبح أم لا؟ يتركون روحك تنسال على البلاط المترب، يلعق الظلام والفئران، تصغى إلى الصمت، من يصغى إليك ومن يفهم؟ كنت غاليا عندها، لم تقصر فى خدمتك ، حين أصابك دور النزلة المعوية كانت دائما.. دائما بجانبك، تحمل إبراهيم وتمسك رأسك بيديها عندما تتقيأ، وحين لا تسعفك خطواتك إلى الحمام كانت تمسح رأسك وتقبلك وتقول (ولا يهمك حد ينكسف من مراته؟)، الموت... كان على صدرك حلوا ياصابحة، اصرخ.. اصرخ يا فكرى، (يا حضرة الظابط أنا قلت لها تسيب الباب مفتوح، ست فى بيتها ما تقعدش ليه بقميص النوم)، بصقة على وجهك، (اخص عليك راجل بقرون)، (طيب ابقى اسند لهم الباب براسك يا...)

صابحة تدخل فى لحمك وإبراهيم يسكت ويتعلق فى رقبتك، احمله.. احمله يا فكرى (اللى تستجير بيكم تتهموها فى شرفها؟)، صدرك يتقطع (اشهد يا حضرة الظابط) فى حلقك

طعم الدم (أنا مراتى أشرف من الشرف)، لكن إبراهيم فى صدرك(يعنى مش أنت اللى بلغت؟)، (مابلغتش، طلعهم من بيتى).

ينفضون...

يعود هواء قليل، تزحف الكلمات الباقية فى روحك

-(اقفلى الباب علينا... اقفليه يا صابحة... اقفليه إلهى يسترك)

رأيت ولم أسمع

رجلان وامرأتان وطفل

دخلوا يتقدمهم أصلع ذو بدلة أنيقة تتدلى من يده مفاتيح المرسيدس.

ذو الشعر الأسود والشارب الصغير كانت يده فى يد المرأة الجميلة ذات الشعر الأصفر والمساحيق والفستان المكشوف الكتفين، ذات الحجاب والوجه الخالى من المساحيق، كان فى يدها الطفل

اختار الأصلع المائدة، جلست الجميلة ذات الشعر الأصفر بين الأصلع وذى الشارب، فى الناحية الأخرى المقابلة جلست ذات الحجاب والطفل، عاد الأصلع بظهره إلى الوراء، طرقع بأصابعه فهرول الجرسون بقائمة الطعام، الأصلع كان أول من فتح القائمة، أشار بأصبعه إلى ذات الحجاب والطفل فخفضا رأسيهما على الفور بالموافقة، ذو الشارب طلب طعامه بملل.

حين بدأت الجميلة تختار كان الأصلع يقاطعها بابتسامة، توقفت وأغلقت القائمة فأملى هو على الجرسون، وذو الشارب لا ينظر ناحيتهم.

قبل انصراف الجرسون همس الأصلع بشىء فى أذنه، بعد لحظات تغيرت الموسيقى، ضم الأصلع قبضته رافعا إبهامه فى الهواء للجرسون ، أغلق عينيه وراح يهز رأسه فى طرب

نهرت ذات الحجاب الطفل الذى كان يلهو بسكاكين المائدة، أشعل ذو الشارب سيجارة وراحت الجميلة تتأمل المكان الأنيق، وهزت رأسها للأصلع موافقة، كرسى الأصلع صار أقرب إلى الجميلة من كرسى ذى الشارب، الأصلع ارتفع جذعه كأنما سيترك الكرسى، ارتفع النصف الأيمن لجذع الجميلة ومالت قليلا بعيدا عن الأصلع.

ملأ ذو الشارب صدره بالهواء، وقال شيئا قصيرا لذات الحجاب التى تواجهه وهو ينظر بطرف عينه إلى الجميلة، ذات الحجاب ابتسمت فى ارتباك وردت باختصار وهى تنظر بعينين تائهتين أعلى كتف ذى الشارب... حيث الحائط.

مع الطعام تحدث الأصلع فقط ولم تتوقف ضحكات الجميلة

شفاه ذى الشارب لم تتحرك كثيرا، سبقهم فى وضع الشوكة والسكين وأشعل سيجارة وراح يدخن بعمق، ويحك ذقنه بالدبلة التى فى يده اليمنى.

ذات الحجاب كانت تمضغ طويلا وهى تضع عينيها فى الطبق

ذات الحجاب كاد رأسها يلامس الطبق، وظلت تقطع اللحم طويلا لطفلها.

الأصلع التقط بالشوكة قطعة لحم وقربها من فم الجميلة التى رفعت يدها اليمنى ذات الدبلة أيضا، راوغت قليلا وأخيرا فتحت له فمها ذا الطلاء القرمزى.

ذو الشارب انتفش وملأ صدره بالهواء.

صرخت ذات الحجاب عاليا فى الطفل الذى أسقط الأرز على ملابسه، بكى، نهره الأصلع فتوقف عن البكاء والتصق بحضن أمه.

خوت أطباق الجميلة والأصلع، الأطباق الثلاثة الأخرى ثلاثة أرباع ممتلئة

أشعل الأصلع سيجارا وعزم على ذى الشارب فرفض،

سحبت الجميلة سيجارة من علبة ذى الشارب، كان الأصلع أسرع منه فى إشعالها، تثاءب ذو الشارب، ضم الأصلع حاجبيه مستنكرا وأشار إلى عقارب ساعته، همس بشيء فى أذن الجميلة ووضع يده عليى كتفها مبتسما.

ذو الشارب قام فجأة، وبعنف غريب باتر أزاح الكرسى وسدد لكمة إلى وجه الأصلع.

صرخ الطفل، أخذت ذات الحجاب رأسه فى صدرها، ومالت على أذنه، لكنها صرخت حين نهض الأصلع وأمسك سكينا وجهها إلى ذى الشارب، أمسك ذو الشارب بيد الأصلع، تدافعا، سقطا فوق المائدة، سقطت الأطباق على الأرض، تهدلت المفارش، ابتعدت الجميلة بكرسيها قليلا.

سقطا على الأرض.

سقطت دموع ذات الحجاب ولم ترفع رأس الطفل عن صدرها.

الجميلة -وهى تنفخ الدخان- ضاقت شفتاها جدا، وضعت يدهاعلى جبهتها وهزت رأسها يائسة حين نهض أخيرا ذو الشارب ولم ينهض الأصلع.

البصــقة

الولد الأخــرس كــان يحــمل عــقــود الفل والورد البلدى واندهاش.. عـينين صـغـيرتين، رغم زحـام أول أيام العيـد، لم يستغرقوا طويلا لاكتشافه وقد وقف بصندله القديم وأصابعه العرقانة الوسخة وملابس ليبت للعيد، مستسلما، وترك التكييف يجفف قطرات عرقه.

المتردوتيل رفع فنجان قهوته بيد مطمئنة وأشار للخارج، الجرسون راحت أصابعه تتحرك مثل بندول الساعة مرات ومرات،الولد الأخرس الذى يبيع الورد دائما أمام المحل ولم يجرؤ يوما على الدخول، أشار بحركات غير مفهومة، فمط الجرسون شفته السفلى للآخرين بيأس.

جاءوا.. أشاروا إلى الطاولات التى لا تخلو من الورد، هز لهم رأسه ويده القابضة على عقود الفل ونقود العيد الجديدة، حاول التقدم بابتسامة، منعوه، أمسك به أحدهم واهتز أصبعه (لا).

الولد كانت ملامحه طفولية، وكانت ملامح الجرسون جادة، وهو ينقر بأصبعه على جانب رأسه وينفض يديه للولد الأخرس، الولد هز رأسه وكفيه وعقود الفل، نظر بعتاب و عدوانية العاشرة، فلم تلن ملامحهم ودفعته يد بحزم، انضمت لها أيد أخرى تدفعه نحو الباب.

الولد الأخرس عاندهم، لكنهم جرجروه للخارج وأغلقوا الباب،

الولد الأخرس تلفت يمينا وشمالا قبل أن يندفع للداخل، ويصبح فى ثانية أمام ثلاجة الجاتوه الكبيرة ذات الواجهة المضيئة، الجرسونات جزعوا وراحت أيديهم تدفع شيئا خفيا فى الهواء، والقهوة انسكبت من حركة المتردوتيل المفاجئة .

توقفوا لحظات فى انتظار أن يهشم - فى نوبة غباء- زجاج الثلاجة، لكنه وقف هادئا يتأملها فاستعادوا أنفاسهم بحمد، ثم وثبوا إليه.

هذه المرة قالت عيونهم وأصابعهم لمن ينطق ومن لا ينطق، لأى شخص يمكنه أن يرى (لا)، أشار إلى صدره، ضم أصابعه الثلاثة اليمنى ثم وضعها على فمه، أشاروا للخارج بتأكيد قاطع.

الولد الأخرس بحث عن عيون ولغة وهواء، نفخ بضيق ويأس،

امتلأت عيناه بالدموع،هز يده من جديد لكنهم دفعوه بقوة، قاومهم بقوة أكثر وقدماه راسختان فى الأرض، احمر وجهه، تلوى بين أيديهم ،انزلق أكثر من مرة وكان بخار دافئ يندفع من جسده الصغير، انفتحت أزرار قميصه وسقطت فردة الصندل من قدمه ، داست الأحذية اللامعة قدمه الحافية وأوراق الورد وعقود الفل التى انفرطت على السيراميك، استمات مدافعا عن الخطوات القليلة الباقية نحو الباب.

أخيرا اقتلعوه، ألقوه بالخارج وألقوا وراءه فردة الصندل، وقف أضخمهم على الباب مهددا، الولد هجم على الباب مرة أخرى فتلقفه الجرسون الضخم، عضه فى يده، فركله الجرسون فى غل .

الولد الأخرس انقلبت سحنته، تداخلت ملامحه وهو يبكى بلا صوت، ثم صدرت عنه حشرجة عميقة.

كانت عيناه تلمعان فى الشمس ولجسده الصغير انتفاضة عندما امتدت يد شاب فى ذراعه بنت حلوة تبغى عقد الفل الوحيد السليم المتبقى، الولد لم يمنح الفل لكنه ترك اليد ذاتها تربت على كتفه ، هدأ قليلا وبدأ يتبادل إشارات مع الشاب.

الشاب الأنيق أخذه من يده ودخلا معا، انحنى الجرسون بابتسامة صباح العيد فتجاهلاها معا، وقفا أمام الثلاجة وأشار الشاب إلى قطع الجاتوه قطعة قطعة حتى اهتزت الرأس الصغيرة موافقة أمام (أنكل سام)، ذات كأس الشيكولاتة ونجمات الكريم شانتيه وحبة الكريز فى المنتصف.

الولد الأخرس مسح دموعه وتنخم فى قميصه، تكلم الشاب بضيق وهو يشير ليد الولد القابضة على النقود، تكسرت النظرات، بسرعة استعادت الوجوه ابتسامة المهنة الجاهزة، وضعوها له فى طبق ورقى وزادوا عليها شوكة بلاستيك ومنديل ورقى، الولد الأخرس ببطء راح يعد ثمانين قرشا، المتردوتيل هز يده ورأسه فلم تمتد يد الجرسون للنقود.

الولد الأخرس أمسك قطعة الجاتوه وحدها فقط، استعاد أنفاسه وترك بريقا يمر فى عينيه ..

الولد الأخرس، كيف أوتيت يده الصغيرة كل هذه القوة والمباغتة حين قذف بقطعة الجاتوه فى زجاج الثلاجة النظيف، ومضى وئيداً للخارج

فتاة وحبة أسبرين

جميلة ومرهقة، رشيقة مثل باليرينا فى التنورة الضيقة والبلوزة البيضاء، تحمل (هاندباج) فى يدها.

الجرسون كان أقصر منها قليلا، عيناه تشربانها على مهل وهو يحدثها، كانت عيناها محمرتين قليلا، بيد مرهقة تعلو قامتها كانت ترسم فى الهواء أوصافا ما وتشير إلى رقبتها.

بعد تفكير قصير هز لها رأسه نافيا، تلفتت يمينا، تلفت معها، تلفتت يسارا فتلفت معها، توقفت حائرة فسحب لها كرسيا، أشارت بسبابتها رافضة أكثر من مرة، ابتسم فى رجاء ومد يده ليضع الحقيبة، نظرت فى القائمة وطلبت شيئا، لم ينصرف وأضاف شيئا بابتسامة واسعة، وظل متجاهلا أو مؤجلا نداءات الزبائن.

بدت كأنها لا تسمع، تنبهت وواجهته بعينين ثابتتين، اتكأت يدها على ذقنها فى برود، العينان ذاتا الجفنين المرهقين اتسعتا

بمكر وفهم، أمسكت برأسها واكتسى وجهها بألم، قالت شيئا قصيرا، انصرف فأشعلت سيجارة وراحت تدخن بفتور

لما عاد كان يحمل كوب عصير وحبة أسبرين، ابتلعتها وأومأت برأسها شاكرة، امتدت يده إلى السيجارة كأنه سيطفئها،توقف وكأنه تذكر قواعد المهنة.

بعد أن شربت نصف الماء أدركت أنه لا يزال يراقبها، وضعت الكوب وزفرت بضيق ، وضعت يدها على خدها مستمعة وبعينين محايدتين، الجفنان اتسعا قليلا ثم ضحكت ضحكة عالية ومتحررة تلفت لها الكثيرون، أخرجت ساقيها من تحت المائدة والمفرش ووضعت ساقا على أخرى، وهى تهزها، صارت ساقاها الموزيتان أكثر جمالا وتحديا للعيون النهمة التى التهمتها، ضحكت مرة أخرى، غير مهتمة أومعتادة.

أصبحت تعاندها ابتساماتها أثناء حديثه، أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها وهزت رأسها موافقة وهى تمسح عينيها بالمنديل.

أوقف زميلا يحمل فازة ذات وردة وحيدة منحها لها، وضعتها على خدها على الفور، حين أخرجت سيجارة أخرى ضم حاجبيه

فأعادتها للعلبة فى رضوخ، بمرح أشارت إليه، راح أصبعها ناحيته ثم عاد مستقيما وهى تهزه إلى أعلى.

النداءات غير محتملة ونظرات المتردوتيل نارية، كز لهم على أسنانه فى لوم وغضب دون أن تذهب ابتسامته، أشار لها أن تبقى،وهو يبتعد كان يدير عنقه ناحيتها، كاد أن يصطدم بزميله الذى يحمل صينية مشروبات، ضحكت له، أغمضت عينيها لحظة وأخرجت المرآة من جديد.

عندما دخل الرجل البدين الطويل ذو الجرح على رقبته، أعادت المرآة واختفت ابتسامتها، لم يسلم عليها، أطفأ سيجارته وأشار للخارج، أزاحت الستارة، من الزجاج تبدو سيارة فارهة يطل منها رأسان.

العيون التى تابعتها تحولت عنها مستريحة وغامزة، بتمهل شديد قامت، وقفت بجانبه، أخرج نقودا وناولها بتعجل لأول من مر به منهم.

أمسك الحقيبة وتحرك لينصرف، بحثت عيناها عن شىء، أمسكته من يده فجأة، ضاقت عيناه.

جاء لها بالماء، تشرب وعيناها تفتشان عن الجرسون إياه

الذى يعد النقود بضيق لزبون يستوقفه أكثر من مرة، ويراجع الأسعار مع القائمة، لكن نظرته ترفرف ناحية عينيها السوداوين، تحرك البدين وصار بينه وبينها.

عيناها لم تتسلقا كتفى الرجل، عيناه لم تخترقا ظهر الرجل، تركت الكوب ومشت تجرجر ساقيها بنفس الخطو المرهق الذى دخلت به، ترك الزبون ليدركها، كانت قد خطت إلى الخارج، توقف أمام الباب يراقبها من وراء الزجاج، يقينا يعرف أنها لن تراه، فالزجاج وقت الظهيرة يصبح كمرآة، لن ترى سوى صورتها والرأسين واليد العنيفة التى جذبتها فى السيارة، هذه المرقلم يهتم بالنداءات، فك (البيبيون) من رقبته، وعكس قواعد المهنة فتح الباب بقوة وخرج.

كل هذا البرد

الولد والبنت، وجهان جديدان، جاءا على انفراد إلى قاعة الاطلاع.

البنت... جميلة، ليست كالمحجبات أو أنصاف الجميلات من رواد المكتبة.

ظننت أنها جاءت تسأل عن صديقة لها، لكن البنت الجميلة سحبت قائمة المراجع بعد أن مسحت الجالسين بنظرات نصف خجلى ونصف متطلعة.

فى ذيلها جاء الولد، طويل، وسيم ،بنظرة باحثة متوثبة، منتفشا فى بلوفر بالونى، حذاؤه الأسود لامع نظيف رغم أمطار الصباح، فى يده تهتز علبة سجائر حمراء رغم منع التدخين.

الولد توجه إلى البنت.

البنت ذات الوجه المرسوم الأبيض، الضارب إلى الحمرة، كانت ترتدى فستانا غاليا بديعا يكتم ساقيها، وعند أقل بادرة يكشف فى تناغم عن امتداد جورب أسود الأزهار.

البنت ذات الشعر الطويل المتموج رفعت له رأسها، البنت ذات العينين الخضراوين ابتسمت.

هى.....

وحيدة تماما، تكتب منذ الصباح خطابا (للسيد) خطيبها، وحيدة تماما فى المكتبة (المشرحة) كما يسميها الحاج محمد، بلاط الأرضية العارى بارد موحش، وأمامها صمت مكاتب أربعة خالية.

هى.....

تحاصرها الرفوف الطويلة العالية المرصوص عليها آلاف الكتب، التى تتلاصق فى إعياء يمينا ويسارا...تحمل فى أسفلها الرقم الخاص.

اللون الترابى الكالح يبسط جناحيه على المكان.

فى بداية عملها، فكرت أن تقرأ كل هذه الكتب لكنها- وبفضل سخرية زميلاتها- سرعان ما ملت السطور مثلما ملت الوجوه المكررة، حين وقعت فى يدها رواية جميلة لإحسان قال الحاج محمد:

- إحسان إيه ؟خدى يا بنتى رياض الصالحين، ربنا يهديك

وتتحجبى.

بعدها قنعت بالجريدة ومراقبة قاعة الاطلاع المواجهة.

هى...

تدارى الخطاب حين ترى البنت تقف أمامها، وتطلب كتابا بلثغة فرنسية جميلة وواضحة.

هى....تبتسم مرتبكة ، تعتذر بأدب وتطلب رقم الكتاب والكارنيه، فى ذيلها جاء الولد، يطلب اسما غريبا آخر.

هى.....لا تبتسم وتلفت نظره بخشونة إلى نفس الملحوظة، تنتظر حتى يدونا الأرقام، اسم الكاتب، اسم دار النشر، ثم تعود لهما بالكتابين وتلاحظ همس الولد للبنت.

هى.....

تعود إلى سيد، تنمق كلماتها، رغم تيبس أصابعها، وتتمنى أن تدرك (البوستة) لتشترى طابع بريد للخليج.

رغم الجورب الصوفى لا تشعر بقدميها فى الحذاء، تحسد البنت التى فى مواجهة الولد على فتحة فستانها الطويلة.

..آه لو تعود إلى البيت مبكرا، تشعل الوابور وتقرب منه يديها وساقيها، ما أقل ما ينظران إلى الكتب المفتوحة أمامهما

ما أقل ما يستقران حتى ينهضا إلى قائمة المراجع، البنت تمرر أصابعها على السطور، بجوارها يقف الولد ، بنصف اهتمام إلى القائمة وكل اهتمام إلى وجه البنت، وجه البنت صار فى مواجهته تماما ، قريبا جدا ، هادئا ومستقرا.

هى....ذابت فى جلدها وهى ترى خصلات شعر البنت تدخل فى شفتى الولد ، وأنفاس الولد. عيون الولد والبنت تتبادلان لغة أخرى ...تفهمها وتبتسم لهما مباركة. تعود إلى سيد وتكتب بحماس.

– (وحشتنى خالص).

وحين تستحى أن تكتب أكثر من ذلك، تراقب الولد وقد انتقلت القائمة إلى يده.

البنت.. حاجباها يرتفعان قليلا، البنت..عيناها شعلتان خضراوان متوهجتان، تفهم هى أن البنت تعاتب الولد، وأن الولد.... يصالح البنت.

البنت تعود ابتسامتها، تنحنى معه إلى القائمة، الولد يهمس فى أذن البنت التى تكتم ضحكتها، ومن بين أسنانها تسيل سعادة، الأنامل ....عصفوران صغيران ينقران بعضهما

البعض.

..تتحسس دبلتها وتكتب أنها ارتضت دبلته واغتراب ثلاث سنوات، لكن مهما كانت الفلوس حلوة ،فأجازة قصيرة لن تكلف الكثير وسترحمها من سخافات أمها.

..تنتبه على صوت الولد وقد جاء منفردا يسأل عن رقم جديد، تشير إلى ركن هناك ، حيث الكتب المتربة التى لا يطلبها أحد. تجىء البنت ، تطلب رقما مجاورا.

هى ... تقوم معها وتوصلها إلى مكان الكتاب والولد.

قبل أن تعود، تختلس نظرة، الولد فوق السلم الإيديال وفى يده عدة كتب، البنت تراقبه بمرح وتوتر ...الولد والبنت لا يشعران بوجودها .

هى ...تغيب عن المشهد مبتسمة.

تتحسس دبلتها الثلجية وتكتب غاضبة أنها بصراحة لم تعد صغيرة، كل زميلاتها قد تزوجن، سترضى بشقة نصف كاملة، المهم الستر.

تتوقف، سيظنها سيد (مرمية) وبلا أهل، تشطب الجملة، هى لا تحب أن تشطب فى خطابات سيد، تقاوم كسلها، تقوم لتبحث

عن ورقة جديدة فى درج الحاج محمد.

...كتمت شهقتها، فى عينيها كان شعاع الشمس المتثائب وهى ترى جسدا واحدا ورأسين . فركت عينيها وصدقت .

الولد - أعوذ بالله - يبوس البنت. والبنت - يا ستار- فى حضن الولد ... وفى المكتبة.

البنت تتعلق بأكتاف الولد القوية الشامخة وقامته التى استطالت فجأة. خاصرة الولد .. حفرة صغيرة كبيرة تجذب البنت إليها بمغناطسية.

هى ... مشدوهة، مبهورة الأنفاس، تسمع حسيس البنت المرتوى المكتوم ... ابتلعت ريقها وحاولت أن تصرخ لتقوم الدنيا.

لكن صرختها اختنقت ، أغلقوا العالم خلفها وظلت وحدها، كان بإمكانها أن تسمع صوت قبلات الولد والبنت، أن تحس طراوة التقاء شفاههما، أن تلتفح بأنفاسهما... وكل هذا الدفء، بل النيران التى تتحدى شمس طوبة وأشتية القلب وبلاط المشرحة.

هى .. وقفت مسلوبة ، ممنوعة، مبعثرة.

تمتصها صورة الولد والبنت، خلفهما كانت عيون الشمس

التى فتحتها كاملة ، فأذابت سماء مكفهرة مطبقة وأعادت سماء أخرى زرقاء، حميمة، مفتقدة.

...يميل بالبنت على الحائط. والبنت سادرة فى استسلام غريب، مطمئن

- كان الحائط باردا ... منذ خمس دقائق، خمس دقائق فقط، رويدا .. رويدا..

بنصف إرادة تنسحب البنت بعيدا عن فارسها/ الولد، بهدوء وتمهل، تفتح البنت عينيها، تستعيد أنفاسها، فجأة تلتقى نظرتها والبنت، يصعق قلبها على الفور رشقة سهم خضراء النيران، فتنكس هى رأسها.

حكايات للبحر

مدخل

كانت فاطمة الزهراء راكبة على جمل فى الهودج، فلما رأت القتال ومصارعة الأبطال حولت راحلتها لتبتعد، فشرد بها الجمل ودعت على الذى كان السبب بالبلاء والشتات، فقال لها أبوها ادعى لهم بالانتصار، فهم بنو هلال الأخيار، وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار، فدعت لهم بالنصر، فنفذ فيهم دعاؤها بالنصر..والتشتيت.

من سيرة بنى هلال

- ١ -

آه يا بحر..لا تصدق أن الصبح مات.

الصبح كان خمسة عيال أصحاب فى المدرسة، والليل نجمات تضيئها الجدات بحكايات الشاطر حسن.

الشتاء..وابور ولمة وعودة الآباء، يختفى العيال فى أحضانهم القوية. يقبلون لحاهم الخشنة، يتشممون رائحة عرقهم، يصبحون فى حضرة آلهة يحبونها ويغفرون لها قسوتها، الصيف، لعب السبع بلاطات والكرة الشراب، حين يهدهم التعب يجمعون بذور المشمش، يغسلونها جيدا ويجففونها ثم يضعونها أمامهم فى أهرام صغيرة، يلقون بالقرش الأبيض بعد أن يقسموا ألا يغشوا فى اللعب.

والقرش يطير ويعود فيسقط، يتبادلون أهرامهم، تكبر وتصغر لكنها تصبح هرما واحدا حين يجىء رجل ملتح يطردهم ويدعو عليهم ويصيح:

– قمار ..قمار يا أولاد الكلب ؟!.

يفزعون إلى أمهاتهم، لكن القلب أخضر والأيام ربيعهم، والخريف بعيد. بعيد كآخر الدنيا يا بحر.

- ٢ -

آآآه يا بحر...لاتصدق أن الصبح مات.

لن يسمعنى غيرك، فلا تمل حكايتى، أنا الراوى أحب سيرة بنى هلال، لا تصدق أنى سأرشوك بحديث ظريف فيه بعض ما أذكر من تغريبة بنى هلال.

صدق أن العيال كبروا، وجلسوا إلى العلماء والشعراء، وأنهم تعلموا الضرب والطعان، صدق أن بلادهم كبلاد نجد من أخصب بلاد العرب، كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان، ولا تصدق أن المجاعة قد عمت من جميع الجهات، وأن الجوع قد اشتد، لا تصدق أن العيال كبروا وجاعوا، وقصدوا مضارب السادات الأماجد فتنكروا لهم فى الحال.

صدق أنهم شكوا لملك الزمان ولا تصدق أنهم قالوا ليس فى بيتنا ثمن عشاء ليلة، لا تصدق لأن عيون الآلهة القديمة قالت: ماحيلتنا ونحن لم نركب البحر ولم نرحل عن هذه الديار قبل

حلول الدمار، لا تصدق لأن العيال لما سمعوا هذا الخطاب استعظموا المصاب، ولا تصدق أنهم وقفوا على الأبواب فى ذل واضطراب، صدق بينما هم فى هذا الغم إذ ظهرت مملكة عظيمة، قال الشيوخ إنها قد حجبت منذ سنوات وسنوات، فيها فاكهة ونخل ورمان، وخيرات حسان، يعرضها عليهم حور لسن مقصورات فى الخيام، بل قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان، أتقول إنها الجنة ؟لا تصدق يا بحر.

صدق أن الرب قال:يا عبادى تعالوا إلى جنتى، ولا تصدق عسكر السلطان حين قالوا ياعبيدى تعالواإلى حيث النكهة والأصالة والذوق والتميز، صدق أن تقف مذهولا، راجيا فى انتظار ليلة القدر، ولا تصدق أن تقف لاعنا حاسدا ناقما محروما مشتهيا أمام بوابة المملكة، حيث الشيكولاتة والشيبسى واللبان، قطوفها دانية، صدق أن بالجنة بيوتا من قصب وأكوابا موضوعة ونمارق مصفوفة، ولا تصدق أن بالمملكة سرر اللوى كاتورز، ومقاعد أوبيسون ومناضد استيل ومودرن، صدق أن الجنة لا تعرف بيت الراحة، ولا تصدق أن المملكة تدعوك إلى حيث الراحة، فى بيوت من سيراميك وزجاج، يغتسلون فيها

بصابون كان مزاجه كافورا، صدق أن بالجنة حوراً عين، ولا تصدق أن بالمملكة غانيات بيجال، صدق بالولدان المخلدين ولا تصدق بالولدان المخنثين.

صدق أننا وعدنا نحن الفقراء المتقين بالجنة، ولا تصدق أنها صارت مملكة تحت أقدام الموسرين.

لا تصدق أن غلمان الحى هرعوا إلى المملكة وتحدثوا بكلام غير عربى البيان، ولا تصدق أن الجاريات تحدثن بالإنجليزية والفرنسية وبفحيح أنثوى، صدق أن طالب العلم لا يشبع، ولا تصدق أن علم المملكة لا يبيد، وأنهم الآن فى بلاط الملك الهاشم والسلطان نور لم يخرجوا ولن يخرجوا.

لا تصدق أن أفتى علماء المملكة وشيوخ المملكة وشعراء وكتاب سير المملكة، أن الملوك الصناديد الأماجد قد انتصروا على ماركس وغاندى وجيفارا ودى كاسترو، صدق أنهم قالوا هؤلاء حلموا بتغيير التاريخ، ولاتصدق أنهم أضافوا لكن ملوكنا يصنعون الناس والتاريخ.

صدق أننا وقفنا بربابتنا نصرخ ونحكى سيرة بنى هلال ولا تصدق أنهم كسروا الربابة، وأننا لا نحفظ الآن سوى تغريبة بنى

هلال، صدق أننا هربنا إلى الشعر ولا تصدق أن الشعر صار مرثية لحبيبتى، صدق بالمساء ولا تصدق أنه صار قبرا لقلبى وأن اسم حبيبتى قد أضحى فى قائمة المسافرين للبحر، صدق أننا وقفنا على بوابة المملكة متكئين على سرر من شوك، ولا تصدق أن عيوننا لا تثقب سماء خرسانية خوفنا بها الشيوخ، وقالوا إنها ليست لنا وأن الرب قد رحل عن بلاد نجد .

لا تصدق أن الخصيان ومهرجى السلطان هزموا بنى هلال ، وأن الهلالية أصبحوا فوجدوا الصباح مصلوبا معلقا من فخذيه على بوابة المملكة، وصدق أن المجد لملكة الإعلان.

- ٣ -

آه يا بحـر لا تصـدق أن الصـبح مـات، وصـدق أن بديراً القاضى صرخ قائلا إن الكل باطل وأطلق لحيته وواظب على صلاة الجماعة، لاتصدق أنه اعتزلنا وقال إن الجلوس فى الطرقات منهى عنه، صدق أننا قلنا (مالنا غير الطرقات)، صدق أنه ضرب أمه أخته ودعاهما كفرة مارقين، صدق أن بديراً القاضى حصل على بكالوريوس الزراعة بتقدير جيد، ولا تصدق أنه الآن يبيع اللبن أمام الجمعية الشرعية، وصدق أنه لا يغش اللبن.

صدق أن عقلاً يبحث عن عمل ، لا تصدق أنه يعمل فى فرن مع المصدورين والصهد وشخير المعلم وسب الدين والملة وكبسة التموين ، صدق دمعة صغيرة تضيع فى بلاط الفرن الدافىء.

لاتصدق أنه – منذ يومه الأول– يكنس البلاط ويجمع العيش (السحلة)، وصدق أنه يمنحه سرا للعجائزمن وراء المعلم، لا

تصدق أنه يمسح طاقة الفرن ويرص الطاولات ويفتح أجولة الدقيق، وصدق أنه يجلس بعيدا يتابع دقات المطر، لا تصدق أنه يعمل سحلجيا وأنه ينتظر العجين أن يخمر، صدق أنها مهنة مرهقة وأنه أضاع سبعة عشر عاما فى الكتب ولا يحتمل الوقوف من المساء للصباح، صدق أن يديه يدا شاعر لا تتحملان لسعات الخبز فتحترقان فى يومهما الأول، ولا تصدق أنه عاد بيديه مملوءتين بأكياس صغيرة تنفقئ ويندفع منها سائل ملحى، صدق أن الجلد المهترئ سيسقط لو استمر فى رص الخبز على الجريد ، لا تصدق أنه يحمل الطاولات ممتلئة من جديد ويقول حين يرى دموعه إنها من الصهد، صدق أن(الأمين)يغشه فى الحساب ولا تصدق أنه تعود أن يسرقوه.

صدق أن أحدهم قال إن الدنيا تقف على قرنى ثور، ولا تصدق أن أحدهم عقب قائلا إن الله قد خلق الدنيا من نسىء ذبابة، صدق أن عقلاً يسمع، ولا تصدق أنه يفهم أو يريد أن يفهم، بل يعمل مثل بندول ، يلقى بقطع العجين أمام عمال الشويق ويحمل الطاولات، لا تصدق أنه لا يتوقف إلا ليسأل كم الساعة، وصدق أن العقارب لا تتحرك، لا تصدق أن تدخل المرأة

البدينة صاحبة المطعم المجاور فيلتصقون معها فى عتمة آخر الفرن، صدق أن الجوزة والدخان والمزاج الرائق هم سلوى أهل الفرن، ولا تصدق أن (عقل) تقيأ وهو يرى أحدهم يقف عاريا تتدلى عورته، صدق أن (عقل) ارتجف زلزال بداخله وتشاجر معهم وضربهم وضربوه، ولا تصدق أنه صار وحده الملول الممل الذى مل نفسه والدنيا.

صدق أن الفرن جدران كالحة متساقطة الملاط، عنكبوت، رائحة قذرة ، سناج ، وصراصير تسير فى طمأنينة، صدق أن عينيه لم تريا شيئا ، ولا تصدق أنه صار من المساء إلى الصباح يعيش بعينى سمكة، وأن أذنيه غارقتان فى الصهد، صدق أنه أصبح لا يعد خطواته ولا يحسبها، ولا تصدق أنه بعد رحيل المساء اكتشف بين ملابسه بطاقة تقول إنه حاصل على ليسانس ولا يعمل، صدق أنه يحاول كل يوم أن يستعيد رأسه ليخرج، ولا تصدق أنه قال أنا لست بموجود وصار يخلع رأسه مع ملابس العمل.

صدق أنه يعود فى الصباح يحمل كيلو جراماً من الفاكهة وعشرة أرغفة مفرودة نسبيا، ولا تصدق أنه كان يحيى أمه

بتحية المساء، لا تصدق أنه ينام بل صدق أنه يغمى عليه من الإرهاق.

لا تصدق أننا علمنا أن مفتش تموين اصطدم به، ولاتصدق أن المفتش ظل يصفعه ويقول (مش تحاسب يا ... أمك)، صدق أنها كلمة قبيحة جدا يا بحر، حتى أننا قلنا هى الحرب وسنقتله، ولا تصدق أنه لم يستطع أن يرفع لنا رأسه، وقال باقتضاب سأسافر للعراق فمن يأتى معى ؟. صدق أن مسئولا كبيرا ظهر لحظتها فى تليفزيون المقهى، وقال إن الأمل معقود على شباب الجامعات.

- ٤ -

صدق أن يسافر عقل وسرحان ، ولا تصدق أن يعود سرحان فقط ومعه صندوق أسود، صدق أننا ليلتها سمعنا صراخ أم عقل، ولا تصدق أن سرحانا ضحك ونزل الشارع ليلعب الكرة مع العيال، صدق أن يستوقفك فى الشارع، ولا تصدق أن يسأله دياب هل صحيح كان يعمل فى الكولية، صدق أنه يمشى والأطفال خلفه يزفونه ويلقونه بالحجارة، ولا تصدق أنه يرجوك أن تلعب معه ملك أم كتابة، صدق أنه مازال يحتفظ بكيس نوى المشمس ولا تصدق أنك تمنع عنه حجارة الأطفال، وتقول راجيا(عد معى للمنزل)، لا تصدق أن تمر علينا جنازة عقل ونعش عقل، وصدق أن سرحان رفع عينيه وبكى، لا تصدق أن هذا حدث فى العاشرة ولا تصدق أنه الصباح، صدق أنه كان بإمكان أهل الحى أن يسيروا خلف النعش لأن اليوم كان عيدا رسميا بمناسبة مجلس التعاون العربى.

لا تصدق أن أم عقل ظلت بالمنزل، وصدق أن قالت إن ابنها هو زينة الفرسان وزهر الشباب، صدق أن تذهب لسرحان فتجده وحيدا فى غرفته وقد أشعل الوابور، لا تصدق أنه جن لأنك أطفأت الوابور، صدق أنه صفعك وقال إنه بردان وارتجف كالمحموم، وعاد ليشعل الوابور، صدق بحبات العرق التى كانت تملأ جفنيك وظهرك، ولا تصدق أن قلبك كان يطفو فوقها وأنت ترى النتيجة تقول إننا فى أغسطس، لا تصدق أن عينيه اتسعتا كسمكة، وأن أذنيه كانتا غارقتين فى وشيش الوابور.

صدق أن يجىء درويش ومعه بدير القاضى الملتحى، ولا تصدق أنه صرخ فيك لتخرج كى يخرج العفاريت، صدق أنك قد سمعت صراخه، ولا تصدق أن الشيخ قد شج رأسه وربطه بمنديل أحمر، صدق أن أباه وأمه مختفيان فى الأركان، ولا تصدق دعواتهما أن تحل بركة الشيخ، صدق أن الدرويش من أهل الخطوة ولا تصدق أنك مجرد غريب، صدق أن تسأل بديراً عما حدث لسرحان، ولا تصدق أنها إرادة الله، وأنك ستؤخره عن صلاة الجماعة.

صدق أن تذهب لدياب على المقهى، ولا تصدق أنه كان يلعب القمار، صدق أن يدخل أبوه عم محروس يعرج بساقه التى لم

يدفنها في سيناء، ولا تصدق أنه خلع ساقه الصناعية وأخرج منها قطعة حشيش، صدق أنه ضرب دياباً في الزمن القديم لأنه فاز في المدرسة بالمركز الأول في حفظ خطاب السادات في القدس، ولا تصدق أنه يخبرك كم تعب هو وأسرته، صدق أنه قال سنكمل حديثنا في البوتيك، ولا تصدق أنه أخبرك في الطريق أن أمه كانت لا تستح أن تخلع ما ترتديه وتقف شبه عارية في الأتوبيس، ثم تعود لخرزانة عساكر الجمرك وركلاتهم لتخرج (بالسبوبة)، صدق أنه قال (لجل ما نعلى ونعلى ونعلى). ولا تصدق(لازم نطاطى نطاطى نطاطى).

صدق أنه حزين من أجل سرحان، ولا تصدق أن الحزن ضاع في صلصلة أساور ذهبية جاءت تسأل عن أقمشة مستوردة.

صدق أن العرش صار لمعاوية، ولا تصدق أن أحدا سم الحسن وباع الحسين.

صدق أن الخلافة من بعده ليزيد ولبنى أمية، ولا تصدق أن ديابا قد أعطى عهده لأمراء المعلنين .

صدق أن تقف في العينين دمعة، ولا تصدق أني استخسرتها فيك يا بحر.

- ٥ -

آه يا بحر لا تصدق أن الصبح مات.

صدق أن جدتى ، علمتنى أن الصبح يولد من جديد لو تبسم طفل، أو دعت لك أم، أو خطت بنت جميلة فوق عشب القلب صدق بالصباح، ولا تصدق بالشموس المطفأة.

صدق حكايتى الأخيرة، أن خطاب القوى العاملة جاء أخيرا لخريج الآداب قسم التاريخ للعمل فى مدرسة ريفية.

صدق بميلاد الصباح مع عينين عسليتين وأنف ضيق تشوبه حمرة، صدق أنها تمشى فتحس بها تمشى فى داخلك، ولا تصدق أن لحمها اندس فى لحمك فى الميكروباص، صدق بالبحيرة العسلية الداكنة ولا تصدق أنها زميلة لك، ولا تصدق أنها مثلك تجيء من المدينة وتسافر ثلاث ساعات لتدريس حصة واحدة أو حصتين.

صدق بابتسامة الأطفال، ولا تصدق أن نصفهم لا يملك حذاء

ويجيء المدرسة بالشبشب فى عز البرد، صدق أن تبذل معهم جهد الأنبياء، ولا تصدق أنهم فى اليوم التالى لا يذكرون حرفا، صدق أن تحاول فتفشل ولا تصدق كلمات الموجه (حرام عليك دول فى شهادة، كسر دماغهم بس يذاكروا)، صدق أن يقول فى حنان أبوى (أنا خايف على تقريرك)، ولا تصدق أن يقول (موتهم)، صدق أن تدخل الفصل فلا تجد إلا ثلاثة، ولا تصدق أن الباقين يجمعون القطن، صدق أن السيد الوزير رفض بشدة تأجيل الدراسة، ولا تصدق أنهم يعملون من السابعة إلى السابعة من أجل جنيهات ثلاثة، صدق أنهم يأكلون (ظفر)، ولا تصدق أن أمهاتهم لا يقدرن على السير فيزحفن بجوارهم من السابعة إلى السابعة لدفع المصروفات، صدق أنها كانت مهنة الزنوج فى أمريكا ، ولا تصدق أنهم لا يستطيعون الإمساك بالقلم وأن أيديهم دامية لأن الأغصان (القشبرة) تخطف أجسامهم الصغيرة، صدق ألا تضربهم لأن أيديهم ممزقة، ولأن الرحمة فوق العدل وفوق المنهج وفوق الموجه، ولا تصدق أن عصا الخولى تمزقهم.

صدق أن امرأة عجوز تريد أن تراك بخصوص ابنها، ولا

تصدق أنها تدعو بأن يحرق الله قلب أمك عليك لأن الولد رسب، ولأنك لو طلبت خمسة جنيهات أجرة الدرس لألقتها لك (على البلغة)، صدق أن تمنع الغش، ولا تصدق أن منعه مصلحة وباب رزق لدروس الدور الثانى حيث المقاولة مضاعفة، صدق أن توزع المدرسة معونة الشتاء، ولا تصدق أن الناظر أعطاك دفتراً وعصا وطلب منك أن تبيع لكل طالب بجنيه.

صدق أن تجلس ساهما، ولا تصدق أنك تتجاهل عينى إلهام العسليتين، صدق أنها قالت فى حسم أريدك، ولا تصدق أنها قالت إنها قد سئمت مطاردتها لك، صدق أنها ستذهب للعمل فى الكويت المحررة وأنك ستفتقدها كثيرا، ولا تصدق أنها قالت لك بصفاقة إن المثالية طريق الضعفاء، وأنها أضافت (إنت فاكر نفسك مين، أبو زيد؟!) .

- ٦ -

آآه .... يا بحر ، لا تصدق أن الصبح مات.

طالت حكايتى فصدقنى ، لو أحفظ سيرة بنى هلال لحكيتها لك وأرحتك واسترحت ، صدق أن الانتخابات على الأبواب، ولا تصدق أن المدرسة محمومة، صدق أن المرشحين يقرأون معهم الفاتحة ويشبكون أياديهم معهم، ولا تصدق أن اليد المضمومة بها مائتا جنيه لضمان أصوات العائلة، صدق أن يسير مرشح فى موكب على حصان أبيض فيبكى الأهالى تأثرا وحماسا ، ولا تصدق أن المرشح الآخر جاء القرية مغلولاً، ولا تصدق أن خمسين ألف جنيهه وضعت على حصير المسجد جففت دموع القرية.

صدق أن الأستاذ جمال سعيد جدا، ولا تصدق أن سبب سعادته أنه ركب زلموكة سعادة البيه وأوصله إلى المدرسة، صدق أنه يحكى كل صباح، ولا تصدق أنها نفس الحكاية، صدق أن

الانتخابات شرسة، ولا تصدق أن السكاكين والمطاوى كانت فى أيدى المدرسين، صدق أننا أغلقنا الأبواب على الطلبة، ولا تصدق أن تعليمات الإدارة كانت عدم وقف الدراسة لأن اللجنة فى الدور الأول الابتدائى، ومدرستنا فى الدور الثانى الإعدادى، صدق أن أباءهم لا يعرفون القراءة وتمسكوا بالهلال والجمل، ولا تصدق أن سندويتشات الكباب والمياه الغازية وزعت عليهم، وصدق أنهم احتفظوا بها حتى يمنحوها للعيال ، لا تصدق أن امرأة ظلت تبكى أمام الباب وتقول إنها تريد عشرين جنيها لتدفع المصروفات لابنها، صدق أن الانتخابات انتهت، ولا تصدق أن أبلة فاتن الجميلة الخجولة الطيبة المحجبة لطمت خديها، وقالت إن زوجها قد وعد بعقد عمل للسعودية، وصدق أن مدرسا قال (ربنا يعوض عليكى زينا ، افتحى الكوتشينة يمكن تكون الأصوات باطلة)، ولا تصدق أنها تشنجت وقالت إنها لا تريد معايرة، وإن زوجها مثلنا تخرج من الجامعة، لكن خمس سنوات على المقهى وثلاثين عاما تحت جلبابه أدمنته المقامرة، صدق أنها تزوجته بعد قصة حب طويلة، وأنك رأيت بنفسك فرحتها وهى تريك ألبوم الصور.

صـدق أن تغيب وردة عن المدرسـة، ولا تصـدق أنها اخـتـفت ووجدوها بعد أسبوع مرمية على جسر، بطنها الصغير منتفخ وملفوف بضمادات بيضاء، يثقبها لون أحمريسيل على التراب، صـدق أنه فـاعل خـيـر ربط عـشـرة آلاف جنيـه على بطن البنت الصغيرة، ولا تصدق ما قال الطبيب إن البنت قد سرقت كليتها، صـدق أنهـا كـان يجب أن تـعـيش، ولا تصـدق أنهـا نزفت حـتى ماتت.

صـدق أن الزناتي زوج أبلة فـاتن دعـاك لمنزله وصـمم، ولا تصدق أنك لعبت، بدأتم بخمسة قروش ارتفعت إلى جنيه وأنك خسرت الأدوار الثلاثة الأولى، ولم تخسر بعدها أبدا، صـدق أن لعبـة ال ٣١ تعـتـمـد على صـفـاء الذهن وبرودة الأعـصـاب، ولا تصدق أن عينيك كانتا زجاجيتين كالسمكة وأذنيك غارقتان فى البـحـر، صدق أنك رفضت النقود الحـرام، ولاتصـدق أن عينى الزناتي ضـاقـتـا وقـال: (لم فلوسك يا أسـتـاذ انت بتلعب مع رجاله)، صدق أنه اعتذر ليعود بلزوم (القعدة)، ولا تصدق أنك خرجت من الحجرة على صوت بكاء وأنه كان لأبلة فاتن، صدق أنك رأيتـهـا، ولا تصـدق أنك لم تـعـرفـهـا وهى منكسـة الرأس لا

تدرى بوجودك، شعرها محلول وفى قميص نوم مكشوف يبرز ثنيات بطنها الهضيم، وأن صدرها كان نافرا مكشوفا.

صدق أن بجانبها زجاجة صغيرة، ولاتصدق أنك عرفت بعد ذلك أنها زجاجة (مية نار) لأن الزناتى يسطو على راتبها، لكنها ترفض أن تتركه يأخذ مصاغها، صدق أنها رأتك وكادت تلم ساقيها المكشوفتين، ولا تصدق أنها توقفت ونظرت فى عينيك كأنك لست غريباً أو رجلاً، لا تصدق أنها كانت بلا رغبة فى الخجل أو فى رؤيتك أصلا، صدق أنك رأيت شيئاً فى عينيها يلتمع ويضيع مع أضواء التليفزيون الخافتة، ولا تصدق أنه الاحتقار.. صدق أن تخبرك فى المدرسة ببرود أنك تكسب باستمرار وأن الزناتى قد يقتلك، صدق أنها قالت (يروح فى داهيه، لكن لا بيت يلمنى لو دخل السجن)، صدق أنك وضعت النقود الحرام أمام الناظر، وقلت إن هذا تبرع منك ومن أبلة فاتن للحديقة، وصدق أنك أخبرتها أن الناظر يفهم ظروفها ، وأنك أقسمت ألا تعود لبيتها مرة أخرى.

صدق أنها خرجت معك من المدرسة وتوقفت طويلا وهى ترى الأشجار عارية، ممددة، متكومة أمام ورشة المعلم رمزى

والمنشار الكهربى يشق بطنها نصفين، ولا تصدق أن الزناتى زوجها عاد إليك وقال إن الجماعة يسألون عنك ولا يصح أن تكسب مرة ولا تعود، لا تصدق أن رجلا من المباحث يبحث عنك فى المدرسة ويسأل عن نشاطك السياسى، صدق أن عينى الرجل كانتا ترقبانك من بعيد وعينى الزناتى تأكلانك ولا تصدق أنك قلت (طز)، وقمت معه، صدق أن فاتن تسألك فى المدرسة بكلمات راكدة (لماذا أنت ؟)، ولا تصدق أنها بدأت تدخل عليكم الغرفة وتراقبك، لا تصدق أنها أخبرتك أنك تخسر بمزاجك لأنها ترى أوراقك وأنت تزايد متعمدا، صدق أن ينصرف الزناتى ويتركهامعك، صدق أن الصمت لغة مشتركة، ولا تصدق أن تنهداتها ودخانك يصبحان قاموسا معقدا، صدق أن ست الحسن صدرها ناصع ونافر ورجراج ولا تصدق أنها مدت يدها وأغلقت الباب، وأن الشاطر حسن مد يده وأطفأ النور.

صدق أو لا تصدق وملعون أبوك يابحر.

هؤلاء الناس

كالعادة، وبعد أكثر من نصف الساعة، امتلأت السيارة البيجو بأحد عشر راكبا، انحشرت بين كتفى وساقى بجسدها النحيل وملابسها السمراء البالية، ووضعت قدميها الحافيتين فوق بنطلونى النظيف، زادت على ذلك سبتاً كبيراً تحمله ورفضت بكل عناد أن تضعه فوق شبكة السيارة، أما الجالس عن يمينى فكان يوخزنى ببردته الصوفية.

طوال الطريق الترابى، غير الممهد، كان السبت ينزلق ويضغط على صدرى وأشعر بأعواده تذبح رقبتى، لا مجال للشكوى، لو بدأت التذمر سيسألنى ذو البردة الصوفية من أنا ومن أين جئت ؟ وإلى أين أذهب؟ وماذا أفعل؟

آه .. يستفزنى هؤلاء الناس برغبتهم المحمومة فى الحديث مع الأغراب الأفندية، أكره أحاديثهم التى لا تخرج عن الدودة والأرض والجاموسة.. أحلامهم المتواضعة وفكرتهم المتواضعة عن العالم خارج قريتهم، لا مجال للشكوى هنا، أمضغ كآبتى الصباحية وأتذرع بالصمت.

– طلبات النقل لن ينظر فيها قبل عام

وحتى ينتهى العام سأواظب على الاستيقاظ فى السادسة واللهاث وراء أتوبيس بلقاس، وفى بلقاس أتكوم فى السيارة حتى تمتلىء وتتحرك إلى الكردود.

حتى ينتهى العام سيذكرنى السيد الناظر يوميا بضرورة الحضور قبل الجرس وكتابة التاريخ وعنوان الدرس.

حتى ينتهى العام، سأظل أبذل جهد الأنبياء مع طلبة لا يذهبون إلى المدرسة إلا هربا من العمل فى الغيط، لا يغسلون وجوههم إلا فى المناسبات، ينقر عيونهم الرمد، تماما مثل جارتى العجوز.

مرة واحدة شق أذنى صوتها الرفيع المتقطع، كانت تجاهد وتقاوم صوت العجلات رافعة عقيرتها بالغناء، شىء فى ملامحها ذكرنى بجدتى، أحسست بالإشفاق عليها وهى تلهث، تخونها حنجرتها العجوز، والسائق يقول فى استهزاء :

– أيوه يا أم السعد قولى ... قولى يا عروستى .

تضحك فتظهر أسنانها البنية المتناثرة، تلتقط أنفاسها، ثم

تندفع فى غناء لم أميز منه كلمة، لم يكن شيئا من مواويلهم الحزينة بل شيء آخر سعيد.

فى مطبات الطريق كانت تسقط هى والسبت فوقى تماما ومع ذلك لا تتوقف.

– يا سلام قولى كمان يا أم السعد.

كنت أريد أن أوقفها والدماء تندفع إلى وجهها الأسمر، وصدرها الصغير الذابل يكاد يمزقه السعال، السائق يستحثها ويتراقص بالسيارة طربا، ونحن الركاب... نتكوم فوق بعضنا البعض، والسبت ينزلق ويغرز فى رقبتى أكثر وأكثر .

لم يمر الكثير حتى أعلن السائق (الكردود)، سعيدا أزحت عنى السبت ولمحت فوقه بقعا صغيرة حمراء فتحسست بعدها رقبتى، فردت ساقى وأنا أشعر بخدر شديد، هززتها لأعيد الدماء إليها، وسويت ملابسى التى التصقت بلحمى، وجدتها تهمس للسائق الذى رفع حاجبيه مزمجرا، كنت على وشك حسم النقاش ودفع الأجرة عنها، لكن السائق ابتسم فجأة وهى تنحنى إلى السبت وترفع فوطة بيضاء.... بيضاء لدرجة لم أتخيلها، وتخرج قرصا قليلة وبعض حبات البلح الأحمر، أعطته إياها

وقطبت حاجبيها مدعية الغضب، لكن ملامحها كانت لا تزال مبتسمة.

عندما حاولت العبور للناحية الأخرى قالت:

- يحميك لعافيتك تعين على السبت.

حاولت رفعه فلم يتحرك، مرتبكا، انحنيت مرة أخرى، ثنيت ساقى، واستجمعت كل قوتى لأرفعه، آلمتنى ذراعاى بشدة، أخيرا رفعته، حين وضعته فوق رأسها أحسست أنها تزداد تحته قصرا وابتساما.

- تسلم إيدك.

تأكدت من اتزان السبت، لكنى حين أبعدت يدى عنه، انتابنى إحساس قاس أن فقرات عنقهاتتقصف، فى بطء سارت، وأنا مكانى لا أتحرك منتظراً أن تسقط، بدت بقوامها النحيل الصغير وكأن شيئا يجذبها إلى الخلف، أسرعت فى خطوتى حتى اقتربت منها، راسما بيدى نصف دائرة فى الفراغ الذى يتأرجح نحوه السبت.

- خلى عنك يا حاجة وأنا أوصلك

- تسلم

قالتها متقطعة الأنفاس، واستمرت فى مشيتها المتأرجحة.

– عشان خاطرى . أنا ماشى فى سكتك

لم ترد واستمرت فى سيرها بعزيمة غريبة لامرأة حدست أنها فى السبعين، حين رأيت العرق يتفصد من جبينها، أمسكت السبت

– أوصلك

بدت غاضبة، ولا أدرى كيف استطاعت أن تقاومنى، خشيت أن أفزعها، فقلت راجيا

– أوصلك عشان خاطرى

نظرت فى عينى نظرة اخترقتنى، لم تكن عيناها نفس العينين الصغيرتين الرمداوين اللتين عرفتهما فى السيارة، ابتلعت ريقها، وقالت وهى لا تزال تسدد نحوى نظرات مقتحمة أربكتنى.

– طيب

بصعوبة شديدة رفعت عنها السبت، حاولت حمله بطريقة لائقة ففشلت، فى النهاية وضعته فوق رأسى، اللعنة كأن سقفا يسقط فوقى، العيدان تشكنى كأنها آلاف المسامير، دمعت عيناى وارتعشت عضلات رقبتى، لأول مرة فكرت ماذا يحدث لو

رآنى أحد تلاميذى ؟ طردت الفكرة من رأسى وسألتها.

– على فين ؟

– التُرب

أحسست تحت وطأة السبت بلزوجة الهواء، واجتاحت أنفى رائحة الروث وغبار الدريسة، مرت حبة عرق رفيعة، حارقة كاوية فوق رقبتى.

على الطريق كانت خطوتى تثقل، وتثقل، بينما خطوها يسرع. تسرع فلا تكاد تلمس الأرض، تسبقنى كأنها منديل حرير تدفعه الريح وأنا أطارده، كنت أحاول الحديث بقدر ما تسمح أنفاسى، لكنها لم تقل شيئا، كلمة واحدة لم تقلها، وعلى مدخل المقابر توقفت لحظة تبحث عن شىء ما، التفت وأصبحت فى مواجهتى تماما، كنت أريد أن أسألها ماذا تريد، لكن عينيها كانتا تعمقان كالبئر وتتسعان اتساعا غريبا، كانتا تشربانني أنا والطريق والندى، وتضيع فيهما الأسئلة، نادت :

– يا شيخ محمد.. يا شيخ محمد

المقابر خالية سوى من شيخ ضرير، جاء يقوده طفل يطن الذباب حول وجهه، سار خلفنا وهو يلعن الطفل، كنت أتبعها

وهى تسير فى دورات ضيقة، أحسست معها أننى أدور فى دوامات من البيوت الواطئة الصغيرة فى قرية مجهولة نائية، تضيق.. تضيق حتى تسحق عظامى، لا أدرى كم استمر سيرى فقد انتبهت فجأة وهى تقف أمام قبر شديد التواضع، أشارت إليه فى عظمة وأنزلت السبت عن رأسى.

متنفسا الصعداء، حركت رقبتى يمينا وشمالا، أدهشنى متى وكيف جاء هؤلاء الصغار ؟ كانوا يصرخون فى طلب الرحمة، وكنت مشغولا فى قراءة ما كتب على القبر(سعد الزناتى خليفة - ٩مارس ١٩٥٦- ٨ رجب ١٣٦٩).

كانت تخرج الرحمة للصغار وللنسوة اللاتى جئن، أعطتنى- مثلهم - بعض البلحات، رفضتها شاكرا لكنها لم تعبأ برفضى وتركتها فى يدى .

على الأرض وبجانب الشيخ المستغرق فى قراءته الآلية، جلست وعيناها ترتعشان بالدمع،مسحت بيديها على القبر ثم وضعتهما على قلبها وتنهدت، تنهدت بحرقة شديدة،.كررت ذلك مرات، وأخيرا..تركت الدموع تهوى وتضيع فى أخاديد الوجه العجوز.

ابنك ؟

خفضت رأسها فى بطء، مدت يدها المعروقة فى صدرها، وبأطراف أصابعها، أخرجت شيئا مطويا يشبه الحجاب، قطعة من قماش صغيرة، فردتها بعناية فائقة، وأخرجت منها ورقة صفراء.. صغيرة .. مهترئة، حين أمسكتها وجدت عليها بخط منمق صغير

– سعد الزناتى خليفة.

قلبت الورقة، لم أجد شيئا آخر، وعندما رأت دهشتى قالت:

– الغالى ما كانش أيامها له صورة، خليت عبد الله أفندى يكتب لى اسمه عشان يفضل نايم قلبى.

لحظتها، سكت العالم، هدأ تماما وأنا أراها تتمتم وتهز رأسها.

...فى الفصل. وأنا أكتب التاريخ، دقت الأرقام فى رأسى بشدة وبعنف. ٨ يناير ١٩٩١، ٨ يناير ١٩٩١، ١٩٩١

حب

غريب أن يندمج الأولاد بكل هذه السرعة، حتى ساعات كنت أظن أن الإقامة هذه الليلة فى القاهرة مع أخى حل سخيف، سخيف جدا جدا، الأولاد، أولادى وأولاده لا يحبون بعضهم، زوجتى وزوجته لا يتفقان، أنا منذ وفاة أبى وأمى وسنوات السفر لم أعد أحب أخى.

بعد الأشواق والسلامات وسؤالى عن فرص عمله فى السعودية، اضطررت لفتح إحدى الحقائب، كانت زوجتى فى الحمام وقتها، ومنحته بعض الأشياء له ولزوجته، أستطيع أن أدعى أننا نسيناها فى فندق جده.

اعتذرت بأنه لم يكن لدينا وقت، كما أنى أفضل أن يشترى هو بنفسه ما يراه مناسبا للأولاد

مددت يدى له بثلاث ورقات خضراء فأخفاها فى جيبه بسرعة ومنحنى ابتسامة شكر أحرجتنى كثيرا .

بقينا نتابع التلفزيون وزوجته تعد العشاء، لم أفهم حماس

الأولاد أمام هاتين اللعبتين الدبابة ذات الريموت كنترول وعربة البوليس.

امتصنى مشهد الأولاد، أبناء أخى الثلاثة وولدى الاثنين وهم يتخيلون أكثر من حادثة، لا حظت أن هانى رغم أنه الأوسط كان لا يشاركهم لعبهم وجلس معى فى صمت، يراقبهم.

- لماذا لا تلعب معهم.

- لا أريد

عدت إلى أولادى، لم أتخيل أن يفرحوا بهما هذه الفرحة فى جده كوموهما مثل بقية اللعب فى الحقائب الأخرى. هاتان اللعبتان بالذات كانتا فى الحقيبتين اللتين فتحناهما لإخراج ملابس النوم، مطاردات، ألف معركة، مليون خناقة وأصوات غارات، ابتسامات، ضحكات، نظرات اندهاش واستغراق.

تربعوا على الأرض ووقفوا، جروا ثم جلسوا، تربعوا ثم قلبوا أثاث البيت. لكن هانى، نعم هانى، الأوسط، جاء بعد أحمد بقى واضعا يده على شفتين، ظل بنظرته التى تخترق اللعب ورفض كلام أبيه أن يلعب معهم.

قال أبوه: هذا الولد..حكاية، (أليط) لا أعرف لماذا ؟

وخبط على رأسه، أحسست أنه المفضل لدى، ذكرنى بطفولتى ومواقف مشابهة، أفسر الآن كل هذا الحب الغريب والمفاجئ للأولاد...

لاخناقة واحدة، لم يبطح أحدهم الآخر، يحتضنون بعضهم البعض، قال أكبر أولاد أخى:

- اقعدوا معنا على طول يا عمو.

الواجب أن نترك لهم اللعبتين، لكن أولادى، أولاد الكلب بدوا وكأن هذه آخر لعب الدنيا التى يستغنون عنها.

قمنا إلى العشاء وهم يمسكون بهما، لقيمات وقاموا- رغم كلام الأمهات - إلى اللعب، أولاد أخى مبهورون يضعون أيديهم على ابتساماتهم المتلفتة ولا يلعبون، الأوسط ساكن، سألته بصوت عال.

- هل تذهب للمدرسة يا هانى ؟

أجابنى ببرود

- اسمى أحمد

آه .. صحيح هذا أحمد، كانت زوجتى قد بدأت حديثا طويلا

عن مـتـاعب الغـربة والحـر وطفح الدم من أجل الريالات والإضافات ذات المعنى.

– الناس تظن أننا نكبش معنا .

ردت زوجة أخى بلهجة ذات معنى

– الباقون فى البلد لا يجدون ما يطفحوه أصلا.

وأضـافت وهى تنظر لى: همتك فى عقد لأخيك، مددت يدى إلى كوب الماء، جاءت سيرة حرب الخليج، أدهشنى ما اخترعته زوجتى من قصص طائرات وصواريخ وقنابل وغارات وأن مصر نعمة.

عند ميعاد النوم حملنا الأولاد إلى النوم حملا، كان ينقص أن يناموا محتضنين اللعب، افترقوا عن بعضهم وعن الدبابة وعربة البوليس فى شبه بكاء، واتفقوا جميعا أن يستيقظوا مبكرا ليلعبوا .

اقترحت زوجتى أن نترك اللعبتين وإلا ستصيب العين أولادنا، قلت لها هذا كلام فارغ.

بعد قليل فى الظلام، وزوجتى تغط فى نومها، أحسست بحركة غريبة، فتح الباب، ومن الغريب أننى لم أر أحداً، عاد

الباب يغلق بعد خرفشة قصيرة، تأكدت أن أحدا قد دخل الغرفة حبوا بالتأكيد، فزعت من كل تخيلاتى، قمت على أطراف أصابعى ولم أنر النور، فتحت الباب وفى ضوء الصالة الخافت جدا كنت أرى أحمد بدون الريموت، يمسك الدبابة ويجرى بعجلاتها على البلاط، كنت أرى اتساع عينيه مثل قط.

أمكننى أن أرسم رغم الظلام ابتسامة على شفتيه، امتدت يدى إلى مفتاح النور.. سعيدا بقرارى أن أمنحها له، هو بالذات وليحدث ما يحدث.

لكننى ما إن أضأت النور حتى نظر إلى مرعوبا، وأخفى وجهه بيديه الصغيرتين واندفع فى بكاء محموم مفزع وحاد، تكوم كل جسده على بلاط الصالة، أيقظ كل البيت حتى زوجتى، حملته أمه كما هو،مثل كرة مطاط إلى الغرفة.

كان بكاؤه مثل حمض كبريتيك يسقط بتمهل فى أذنى، وكانت عينا أخى تواجهاننى.. تواجهاننى تماما.

العتمة

أعرف عودتها من نباح ركس، من وراء الشيش أراها فى سوادها ، أتابع خطوها الثقيل، العجوز يستند على ذراعها وفى اليد الأخرى تحمل ما تبقى من جرائده.

الكلب دائما أخافه، وهى لا تمشى أبدا بدونه، كنت أمر أمام بيتها حين خرج فجأة مثل شيطان أسود، ونبح مكشرا عن أنيابه، هممت أن أجرى فصرخت: (ما تجريش).

توقفت، توقف وعاد إليها يهز ذيله، ويتدلى لسانه الأحمر الكبير يلهث.

كانت تستند بذراعها وصدرها على الباب الموارب، مثلهم طلبت منها أن تأتى لتمسح لى السلم ومنحتها الخمسين قرشا، لم ترد وظلت تلوك اللبانة فى بطء

الآن تطفو فى رأسى بيضاء مثل أوزة، منحنية (بالخيشة)، كنت أتأمل باطن فخذها القوى الممتلىء، وأرى القطع الكبير فى قميصها الأسود يبرز لحمها الأبيض اللامع بالعرق.

حين استقامت لم تندهش لقدومى، كانت تضم كتفيها وتدلى ذراعيها العاريتين تعصر (الخيشة)، ينحبس نهداها ويشرئبان إلى أعلى، فأبتلع الدخان بشهوة «حاسب الأرض ما نشفتش»

ألقت الخيشة على البلاط ، وقفت عليها بأقدام حافية كبيرة مبلولة ، كأنما ترقص فى مكانها ، راح جسدها يرتج وهى تجفف الأرض.

حين راودتها عن نفسها ، بفتور تركتنى أقبلها (لو عرف هيقتلنى) ،(هأقتله قبل ما يلمسك)، قالت وهى تدخل فى جلبابها إنها تنتظرنى بعد أن ينام.

الليلة..

تجرعت البيرة، وقلت إن الكل يفعل ذلك، وإننى لابد سائلها هل العجوز زوجها أم أبوها، فى بئر السلم كانت واقفة على العتبة والكلب بجانبها، فى يدها لمبة الجاز، ترفعها فأرى وجهها أيقونة رخامية وشعرها محلولا، يجىء صوتها خفيضا مستخفيا (ادخل)، أرتمى على شفتيها مطاردا، ترفع الشال عن كتفها، أدخل يدى فى قميصها، ذات القميص المقطوع، تلفنى رائحتها الثقيلة وعرقها اللزج.

(لو عرف هيقتلنى).

(هأقتله).

تركت المصباح على الأرض، مرق الكلب بجوارى وكان خياله على الحائط هائلا، أقعى على الباب.

أميل بها على الدرابزين الخشبى فيتململ، تكتم شهقتها، لذتها، جوعها، صدرها حر يثور فى صدرى، تحتضننى وتجن أنفاسها فى وجهى.

تشعلنى، تحرق مراكبى، أشتعل.

البحر... يصير زجاجا، رائحة فمها كريهة، تطفىء المصباح، وتبقى عينا الكلب ترمقاننى.

تحاصرنى رطوبة السلم والعرق وبقايا لعابها البارد على وجهى.

رأسى تدوخ، تذوب بقيتى فى سخونتها، يصير البحر زجاجا.

– (هتيجى تانى ؟)

أسوى ملابسى ، ترتعش بى ساقى، وألعن البيرة.

– (احلف)...

ينادى العجوز فجأة:

(زبيدة)

يطقطق شعر رأسى، أكتم أنفاسى وتحرقنى قطرة عرق تحفر بتمهل ظهرى، تستند على الحائط، تمسح وجهها وصدرها بيدها، وتتنهد بعمق.

(زبيدة).

تحتضننى فجأة بعنف.

(هيقتلنى)

أرفع عن جسدى ألف يد لها تمتد فى شعرى وقميصى وسروالى وبعضى، تقبلنى محمومة بصوت حاد كالصرير، تتأوه، أحاول التخلص منها، لا أقدر.

أسنانها تنغرس فى كتفى، أريد أن أصرخ، أطحن ضروسى ألما، أستجمع حروفا ممزقة..

(هيسمعنا)

الكلب..وقف. زمجر وسد الباب تماما، عيناه تلمعان كالمزاغل. العجوز ينادى مجنونا، أسنانها تغوص أكثر فى لحمى. تحتضننى متشنجة، تفح فى أذنى (هيقتلنى)، أستجيب..

أستجيب.

خطوات العجوز تقترب، عصاه تقترب منى جدا.

أقفز وأخبط رأسه فى الحائط بشدة، يسقط، أمسك بالرأس وأظل أخبطها على حافة السلم، صوت العظام تتهشم، الدماء ساخنة لزجة على يدى، تسكن هى والكلب.

لا أحد... والعجوز جثة تحت أقدامى هامدة.

أخيرا....ألتقط أنفاسى المتلاحقة، وأتمنى شربة ماء.

اختصار

شمس الثانية عين قاسية تراقب من عل.

الصرخة عالية وحيدة و مبتورة، العابرون الذين أجبروا على وقفتهم المملولة فى انتظار القطار، جموع الأولاد العائدين من المدرسة، بائعو البلح والجوافة الذين توقفت مذباتهم عن الحركة، طابور السيارات المنتظرة وداخلها المتأففون، نظروا جميعا تجاه الصوت.

بين الجرس التقليدى للسيمافور واشتعال مقلتيه الحمراوين خرج المحولجى يصرخ من نافذة بيت التحويلة الخشبى

-يادى المصيبة. . . . الحقونا

النظرات حطت على القطار الرابض فى الورشة لكنها عادت واستقرت على الولد الريفى الأسمر ذى الجلباب الرمادى، الذى وقف على مقربة بين قضيبين لا يتحرك رغم أن القطار الآخر القادم غير بعيد.

لعله فكر فى اختصار الوقت أو المسافة فعبر من فتحة السور قاصدا الجانب الآخر، لكن قضبان التحويلة فاجأته، انقضت على قدمه، فلم يسقط وصرخ تلك الصرخة الموتورة، عبثا حاول انتزاعها أو تحريرها، عيناه الصغيرتان... رغم بعدهما عن الصفين المتواجهين وراء المزلقان الحديدى تسطعان موتا .

الحائطان البشريان يشرخهما انفلات مباغت، جذوع تنحنى لتمر من تحت المزلقان تنتصب بسرعة وتجرى بين الفلنكات، الأقدام تغوص بين الزلطات لكنها تهرع لمساعدته، .تجذبه بلا فائدة، تمزق جلبابه وهى تحاول تحريك القدم المحشورة بين فك القضبان المضمومة فى عناد .

القطار القادم ... أطلق صفيره لأول مرة، بدا واضحا فى ملفه الأخير وحش هائل يتقدم غير عابئ بأحد، النداءات تزداد حدة :

– افتح التحويلة

ما أقدرش القطر كله ينقلب

صوت القطار يتصاعد، يهدر بدقات قلب معدنى، جلبتها الرتيبة تنخر القلب والأذن.

مذعورا، فرمن فر وترك الولد، مذعورا، وقف البعض وقد احتفظ بمسافة معقولة، على أقدام ترتجف رغم شجاعتها تستعد للهرب، وتنتفض من نفثات الخطر الداهم، الولد لا يصرخ، عيناه السوداوان الصغيرتان واضحتان تماما فى احتراق وتضوء أخير نهائى، فلاح كان آخر الواقفين يصرخ فى هلع، يده المستميتة ما زالت تجذب القدم العارية حتى الساق .

فاس .. فاس يا ناس واقطعوا رجله .

الكلمات تضيع فى هدير القطار، الصوت تكثف فى زفرة فم هائلة أسطورية تبتلع كل من يفكر فى تحديها، الفرار، الفرار، الكل يهرب الآن عائدا لحدود الأمن حتى الفلاح آخرهم عاد مثلهم وتركه وحيدا، دون اتفاق كانت صيحة جماعية متوترة

– اتشهد اتشهد.

حتى الأمهات، من وضعن أيديهن على وجوه الأطفال وأخفوها فى صدورهن صرخن مغمضات الأعين .

– اتشهد

القطار قوة محتشدة وشيكة .. مواجهة، اقتربت تماما وكشفت عن كامل جبروتها وقوتها، الأنفاس توقفت، العيون

نظرت مبهورة من بطش الموت، والفراغ يشحذه الترقب.

الولد الذى لا يعرفون اسمه أو ديانته، لعله لم يسمعهم، لكنهم جميعا سمعوا كلماته بعد أن هصره القطار وتجاوزه

- أنا من ديمشلت .. أنا من ديمشلت.

أحيانا لا أكون ميتا

البداية مجرد مجاملة تقليدية، فتاة تقترب من مقعدك فتتخلى لهـا عن مكانك وتقـوم إلى الزحـام، لدهشتي.. زنقت الجـارة النحيلة بجوار النافذة وألحت بتلقائية أن أجلس بجوارها فى تلك البضعة سنتيمترات القليلة، أرضية الأتوبيس رغم أنفاس الزحام باردة ومبطنة بصمت شتائى كسول، من النافذة لاحظت بداية سقوط المطر.

أخرجت من حقيبتها ترجمة بيروتية لكامى، وبدأت فى القراءة رغم الضوء الشاحب، أثناء مطبات الطريق كان فخذها يلامس فخذى فأبتعد فى حدود المتاح، حين تقدم الكمسارى سمعت صوتها لأول مرة، بطيئا... مستخفيا، تعتذر لأنها سببت لى هذه الجلسة غير المريحة، مدت يدها لتحمل عنى الحقيبة والقاموس، تحت إلحاح اليد المشرعة قبلت، الوجوه المتفرسة تعلونى وتثير تقززى.

هى على أية حال وجه أنثوى وحيد فى أتوبيس ريفى، لم أحدد هل هى جميلة أم لا، كانت ممتلئة قليلا، فستانها الأصفر

عادى وغير قبيح، سألتها متحديا النظرات بخفوت مصطنع

– هل تحبين كامى ؟

–وجدتها صدفة..للطريق.

ناولتنى الكتاب. ابتسمت وأنا أقرأ الأسماء، عدت إلى الصفحة الأولى وأنا أردد الأصل الفرنسى (IL VIENDRA).

–اسمها الحقيقى سوء التفاهم.

لم تهتم، لكنها بعد لحظات سألتنى هامسة وباهتمام

–هل سيقتلونه ؟

تداعت أمامى الأحداث وسنة رابعة والدكتور على درويش، جون يعود إلى أمه وأخته بعد غياب عشرين عاما ليعوضهما بعد وفاة أبيه، يخفى شخصيته فتقتلانه طمعا فى ماله

– نعم. سوء تفاهم كما قلت لك.

عضت على شفتها المكتنزة فى ألم، عاد الكمسارى ليتأكد من التذكرة، وابتسم لى فاهما مظهرا لثة حمراء وأسناناً صغيرة قلت لإغاظته

–حضرتك خريجة آداب ؟

أجابتنى بنفس الهمس والالتصاق

– لا...

–......

– أعمل فى شركة تأمين.. وحضرتك ؟... مدرس؟

تحسست جيبى وتذكرت دهشة المدير وهو يدير القلم الأحمر فى يده (ندب كامل للمكتبات، غلط التدريس أفضل . أعاد ظهره للخلف، وقال (تفضل الصمت والهدوء..لكن...)، الكمسارى يريد العبور مرة أخرى، مالت الجذوع فوقى، كل هذا الترصد من أجلها، تأملت ملامحها، عادية ليست خارقة الجمال، فيونكتها البلاستيكية وأساورها الذهبية تؤكد أنها من طبقة متوسطة، لكن شيئا يمتصنى فى هذا الوجه.

لعله النمش القليل الذى يبرقش وجهها، يذكرنى بفراش الصباح، قبل قليل من هروبك للعمل كنت مع ليلاك تدخل فى ظلال دوحتها، أنفاسها خلف أذنك مباشرة، تقسم أنك استيقظت وفى الفراش بعض من رائحتها، فى رئتيك خواء شتائى، ولا تفهم شيئا قالته ذات الفستان الأصفر والنظارة السوداء، هاتان العينان المختبئتان، هل تشبهان عينين آخريين، آه من ديمومة التماع نجمتين على بئرى عسل، كانت كعادتها

مؤلمة جدا، وقالت وهى تبتسم فى مكر إنك لن تفهم بروست ولا زمنه الضائع، لكنك فى صباح ضائع، نحل البرد قلبك وسكبت قهوتك على المائدة وهربت.

مع اهتزاز الأتوبيس وصوت المطر، سألتها محاولا تخطيم صليبك ومقتنعا أن هذا ليس صباح المسيح

– هذه الدبلة... حقيقية ؟

اجتهدت لتبتسم ابتسامتها المرتعشة دائما

– ماذا ؟

– أقصد.. من أجل العمل ؟ بنت جميلة مثلك بالتأكيد يضايقها الكثيرون.

وافقتنى بنصف ضحكة وهزة رأس.

أعلن الكمسارى عن محطة، قامت المرأة النحيلة تشيعنى بنظرة متأففة، اعتدلت على المقعد وتنهدت، كان وجهها نحو النافذة التى غبشها المطر، رحت ألاحظ نمنماتها، ساقها المخروطة والقطع الصغير فى جوربها، وهى تضع ساقا على ساق، انسدل الفستان يبرز ركبتها المستديرة.

أعترف بأنها جميلة وتقرأ لكامى ولو بالصدفة، تفتقد منذ

سنوات هذه المصادفات، البدايات شىء جميل، فكرت فى أول يوم افتقدت ملامح وجهى القديم، ومتى تساءلت بجدية ما الذى يدفع الناس للبكاء أو الابتسام؟!.

– هذا الصباح كنت متأكدا أننى سأراك

ردت بلا دهشة

– شىء غريب، هذا الصباح...

رفعت جذعها ونظرت من النافذة. فى القلب دقة عرجاء، هل يمكن ؟ وهل ؟

– خسارة ليتك تكملين

– لماذا ؟

مطب آخر، تلامس فخذى وفخذها بقوة، لم تبعده.

– لماذا ؟

هربت إلى أزهار فستانها وانزلقت نظرتى على لمعته، فاجأتنى حين طلبت من الكمسارى تذكرة إلى مدينتى، بطرف عينى تابعت الأصابع المدربة الغليظة وهى تمنحها الورقة، صفعتنى ابتسامة انتصاره للمراقبين، حاضنت يديها على صدرها وغاصت برأسها للخلف.

- هى مدينتى أيضا.

وجهها لا يزال نحو النافذة، أنفاسها تتكثف على الزجاج، بيننا كان القاموس والصمت وإحساسى بالتسرع، بعد قليل أعلن الكمسارى (المنصورة).

كفها يطبع على الزجاج بقعة نصف شفافة كافية لأرى تجهم مدينتى، لما توقف الأتوبيس، ناولتنى الحقيبة والقاموس.

عابرا المسافة القليلة إلى الباب كنت أمضغ ندما حقيقيا. نزلت، استقبلنى البرد ورخات المطر، قبل أن تنزل مدت لى يدها ترددت أن أخرج يدى من دفء جيب البنطلون، لمست يدها الباردة، على الفور كانت على يدى قطرة مطر باردةأيضا.

فى التاكسى، كانت قريبة جدا ولم أعد أجفل من ملمس ساقها، فى خياشيمى ومنذ فترة رائحة مألوفة، تشممت الهواء فابتسمت وأشارت إلى ضرسها وهى تمنحنى بعض حبات القرنفل، تركت رأسها يلمس كتفى وقالت فى براءة لم أتجرعها

- أرجو ألا نتأخر.

تذكرت فجأة أننى لا أعرف اسمها، قالت بعد تفكير قليل(......) أحسست كذبها.

المطعم طرى فى ذاكرتى، قادنى الجرسون إلى نفس الركن المنعزل، استأذنتها فى إجراء مكالمة، سألت محمود فى التليفون إن كانت شقته خالية، قال بعد كلام سخيف إنه سيجهزها بعد نصف ساعة

–اسمع لا تفهمنى خطأ

– يا أخى نحن أخوة سأترك المفتاح تحت المشاية.

راح يتحدث عن أماكن الشاى وحجرة النوم فقلت بضيق

اسمع ربما لا أحتاجها

كانت تدير الدبلة فى أصبعها، وأمامها استقر كوب الليمون، لم أسمع جيدا ما قال، وضع السماعة، كان صوت الحرارة فى أذنى، أغمضت عينى وهاجمنى الصوت، كان صوتها بعيدا دائما فأغمض عينى لأستجمع شتات كلماتها بأننى سأفهم وبأنها ستكتب لى، قالت لا إله إلا الله...!؟ قلت الله لا دخل له

بنزوات الأميرات، لا إله إلا الله، وضعت السماعة وقلت ملعون أبوها بشركته وعماراته وفرح ابنه الذى غنى فيه مطرب لولاكى، خلعت دبلتها الفضية، لكنها مازالت مع صورها ورسائلها تسمم ليلاتك وأحلامك والصباح.

ذات الرداء الأصفر والنظارة تتأمل الأرائك و الرواد القلائل، وتنقر بيدها على الطاولة الصغيرة المستديرة

– لماذا لم تطلبى غداء ؟

– الليمون مفيد جدا للبرد

(لماذا نقتل روح الأشياء...هل لنتعتق.)، سألتنى هل أذهب للجامعة

– المفروض أن أذهب اليوم، هناك زميلة تناقش الماجستير، نغمة الحزن فى أشعار مارسولين ديبور فالمور).

– اسم صعب

– فعلا ... لماذا لا تخلعين نظارتك ؟

خلعتها وظلت عيناها مغلقتين للحظات، سطع أخيرا لونهما العسلى، لكننى اكتشفت أن نهاياته الإبرية تتحول إلى لون أخضر، عينان عميقتان مستقرتان، وغائبتان جميلتان، لولا الكحل والأهداب الذابلة.

– أنت جميلة جدا فلماذا تختفين خلف نظارتك ؟

ابتسمت نصف عاتبة ونصف مصدقة، أمسكت باطن يدها الرخو البارد، لم تهرب ولم أرفع عينى نحوها، تركت يدها فأمسكت بكوب العصير بسرعة

– أنت أيضا لم تخلع نظارتك.

خلعتها، فقالت

– تبدو مرهقا..ألم تنم بالأمس؟

(ألم تنم بالأمس؟!) قالها وهو يوقع أخيرا على القرار(هل أنت مريض؟ يا بنى حلاقة ذقنك لن تكلف شيئا كما أن حذاءك.... لا تؤاخذنى.. لماذا تتجنب زملاءك؟)، ضحك ثم أردف (أو تتزوج، علمى أن لديك شقة وما يكفى لتبدأ).. بعيداً كانت سهير تتهمنى عيناها، سألته بعد صمت أن أنصرف، صمم أن يقبلنى.

–ألم تنم بالأمس ؟

هل تخبرها أنه كامى، أم أنها زارتك بالأمس، هذا الصباح هاجمتك رغبة محرقة فى احتضان امرأة، أى إمرأة، حاولت أن أجتر شجاعة الصباح البعيد لكن عينيها تفزعاننى، تهربان إلى النافذة، وتعودان من الشتاء بثلجية خضراء آسنة.

– لا أحب هذا المكان، هل ننصرف ؟

– ليس سيئا لكنه غريب...بلا كراس.

– المفروض أنه للعشاق يتجاورون بدلا من المواجهة.

قالت بطفولية :

– يستطيع هكذا أن يمسك يدها.

في الصيف، كانت في النوافذ الباردة ياسمينة وأزهار حمراء، في هذا الوقت من العام كنت تمسك يدها وتقبل باطنها الدافيء وتتابعان معا قطرات المطر على الزجاج.

– هل ننصرف؟

بدا الحل في رأسي أكثر راحة من الكلمات، وتذكرت كلمات محمود (هذا أفضل علاج لوجع الرأس)

– كان يجب أن تشرب الليمون، أنت مصاب ببرد.

(أنت مصاب ببرد، ألهذا تكره الشتاء ؟) سهير كانت وجها جديدا منعشا في غرفة معتمة بأحاديث المتزوجين المكررة، منذ جاءت وحركاتك أكثر عصبية، ترتبك كلما واجهتك مبتسمة، تلقى كلماتك كأنك تتخلص من حمل ثقيل، لماذا لم ترد إنه التهاب جيوبك الأنفية وليس البرد، لكن فكرة التوقف ومغادرة الغرفة كانت تبدو دائما مناسبة جدا.

كانت بينك وبين النساء.. بين جرحك والرب... ويدها.. لم تعد في يدك.

في المصعد مددت شفتي أقبلها، قاومتني بضعف، وأنا أستعد للانسحاب فاجأتني شفتاها باستسلام ذليل، كان ملمس خصرها قطنيا وبلا أي دفء، رغم لدونته لم يكن إنسانيا، أسلمت برودتها لبرودتي، وأغلقت عينيها (آه لو تجد عذرا لسخف قبلة قرنفلية وعينين تفشل في تحديد لونهما؟)

عندما تجشأنا الأسانسير كنت أحس ذنبا واشمئزازا.

-وأنا أتأمل أساورها الذهبية فكرت.. تبدو مع الدبلة أكثر قليلا من زينة فتاة لا ترتق جوربها... يبدوان معا مثل... شبكة.. كيف تناسيت ؟ الدبلة إذن حقيقية.

-اسمك (...) فعلا.

أخرجت من الحقيبة بطاقتها، صورة أقل برودا، على يسارها بياناتها، جامعية وفي الثالثة والعشرين، أمسكت بيدي تحسست أصابعي الدبلة، فقبضت عليها بحزم ودون عنف، استبقتها في يدها، أحسست لأول مرة بدفئها.

- ٣ -

كان المطر قد توقف، وقفت أبحث عن تاكسى، لكنها قالت:

– أرجوك نتمشى قليلا.

– فى هذا الجو .

– أصابعى تيبست فى الحذاء.

الشارع هادئ مغسول بالمطر، العابرون قليلون، الخطوات العابرة أكثر جرسا فى أذنى، بينى وبين الناس سحابات صغيرة من أنفاسهم بيضاء ومتبددة، أمر بنفس الفتاة الصغيرة بالإيشارب الملون على رأسها، تجلس على قفصها الصغير، وعلى قفص آخر مواجه قطعة مشمع ترفعها لتظهر أكياس مناديل قليلة..مبعثرة، ضمت الصغيرة ركبتيها فتلامستا وأعادت انسدال الجلباب الكستور وابتسمت، فى يدها كتابها، لم ترها أبدا بدونه حتى فى المساء، رغم أرجل العابرين التى تحجب عنها الضوء. لم أشتر علبة المناديل وتجاوزتها، لن تغفر

الصغيرة ذلك. صوت أزيز السيارات مبلول يلعق الطين، للصوت ذيل وجرس رطب مستمر فى أذنى

– جميلة.

كانت قد توقفت دون أن أنتبه أمام محل للأطفال تراقب عروساً صغيرة باهتمام، سألت بابتسامة طفولية عن ثمنها وراحت تفاصل البائعة، كنت ألاحظ عينيها ترتجفان باللون العسلى، فجأة اكتسى وجهها بجليديته السابقة وهزت رأسها رافضة، ابتعدنا خطوات فسألتها

– لماذا لا نشتريها ؟

هزت كتفها ولاكت حبة قرنفل جديدة وهى تضع نظارتها

– لن يلعب بها أحد.

بعيدا ..كان الأتوبيس يكمل دورته

– هل الشقة بعيدة ؟

سألتنى فجأة بحدة ويأس

شىء فى صوتها يتناقص، تواجهنى ولا تأتى بحركة، شىء بداخلها يرضخ، يتصدع، ويصل إلى مثلى، أنظر فى وجهها، النظرات السجينة لم تخترق نظارتينا، لم يكن لدى حرف....أى

حرف، أخرجت منديلها تمسح دمعات نحيلة انسابت خلف متاريسها السوداء.

....الشتاء هزمك تماما.

كانت يدها تستميت على طرف الثوب، والريح تحاول تعريتها باستمرار، سقط القاموس فى نشع الماء، انحنيت ألتقطه، بدا على وجهها تعبير جامد عدوانى، أخيرا قالت متماسكة :

– آسفة يجب أن أعود. ضرسى يؤلمنى.

– أنظر إلى ساعتى .

– أنا أيضا تأخرت كثيرا عن المناقشة .

– نتقابل فى فرصة أخرى.

لا أحد يسأل متى، الأتوبيس يقترب والمطر عاد إلى السقوط مرة أخرى وبشدة، استدار الأتوبيس، أحسست به يزيح كتلة الهواء من حولى ويتركنى فى الفراغ، حين صعدت كان خطوها ثابتا، توقفت على الدرجة الثانية ، تمد لى يدها، لم تكن باردة على الإطلاق، أضع يدى الخالية فى جيبى، أستدير ولا أسرع، كان موعد المناقشة قد فات، أتذكر غرفتى الباردة بلا حماس، القواميس ملقاة على فراش غير مرتب، نسخ مصورة لأشعار

أرجــوان وبول إيلوار، إن عــمل مــقــارنة عن مــواجـــهـــة الواقع عندكامى وسارتر وكافكا قد تكون مناسبة للبحث، وحدك وبيدك كل الوقت الآن.

مررت بالمحل كان قلبه مظلما، فكرت هل ستعود إلى كامى رغم الظلام الوشيك، مسكين جون كان يبحث عن كلماته وبيده كل السعادة الممكنة، قال الأستاذ:

(فى خطاب كامى إلى جريو نقرأ....لو قال لها ببساطة: أنا ابنك لكان الحــوار ممكنا ومــا وقــعت الجــريمـــة، العــبث يبــدأ بالاكتشاف، مثلا السبت استيقاظ ..عمل.. غداء.. عمل... نوم. كذلك الأحد، الإثنين، الثلاثاء)، بدأ المدرج كله فى العد الأربعاء، الخميس، الجمعة، نقر الأستاذ الكبير على الميكروفون، وفى النهاية مسح رأسه وضحك معنا.

كان يمكنك أن تدعوها إلى كوب شاى ساخن، وأن تقول لها أى شىء حقيقى، فالعروس الصغيرة فى الفترينة عيناها أجمل من كل العيون الصناعية الأخرى فلماذا لم تشترها؟.

كانت الغرفة شتائية جدا وغير مرتبة، قالت إنها ستسافر إلى فرنسا، وإن مدام كرستين قد قبلت أوراقها بكلية الدراسات

الإنسانية والآداب فى نيس، وإننى أفسد يومنا الأخير رغم أنها فعلت المستحيل لتودعنى، قبلتنى ومالت نحو الفراش، صفعتها وقلت إن رغيف الفقراء لا يشتريه عشاء واحد أخير، أعادت إغلاق سوستة الفستان وقالت وهى تذرف دمعة ملكية إنك متوحش لم تفهمها ولم تحبها أبدا.

كان المطر قد ازداد، أسرعت الصغيرة بثنى قطعة المشمع فوق رأسها إلى السماء محتجة.. لماذا لم تشتر علبة المناديل المعتادة؟ بدأ الأتوبيس فى التحرك وكنت لا أزال أمام المحل أشيعها.

كانت...سترتق القلب إلى حين.

هرعت إلى البائعة وقبل أن تمنحنى الباقى خطفت العروسة، تركت القاموس والحقيبة، أجرى على البلل، المطر يغسل رأسى، أجرى، الأتوبيس يزيد من سرعته، يجب أن أدركها، (هل تدركها وهل...؟) الشتاء عباءته على مرمى البصر.

المحتويات

صدر من هذه السلسلة

الأعمال القادمة

حديقة الذكريات.................................. حسين أحمد إسماعيل
امرأة تلد رجلاً يشبهك .... عزة سلطان
قيامة الأعضاء .... مصطفى فتحى
عزاف النار.. العربى عبد الوهاب
بنحب موت الحياة.. عزت إبراهيم
الأطفال يولدون نياما.................................. حمدى عبد الرازق
يرجع العاديون مكبلين بالياسمين.................. وسام جلال الدويك
غادة الأساطير الحالمة.................................. محمد العشرى
يحدث.. عبد الحفيظ طايل
أصداء التراتيل الصامتة.................................. محمود قنديل
ص .... على الدكرورى
صورة الحزن الدائم.................................. محمد صالح البحر
حروف ونقط دم .... فتحي البريشى
صلوات الأرض.. ماهر مهران

رقم الإيداع : ١٥٦٩١ / ٩٨

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

